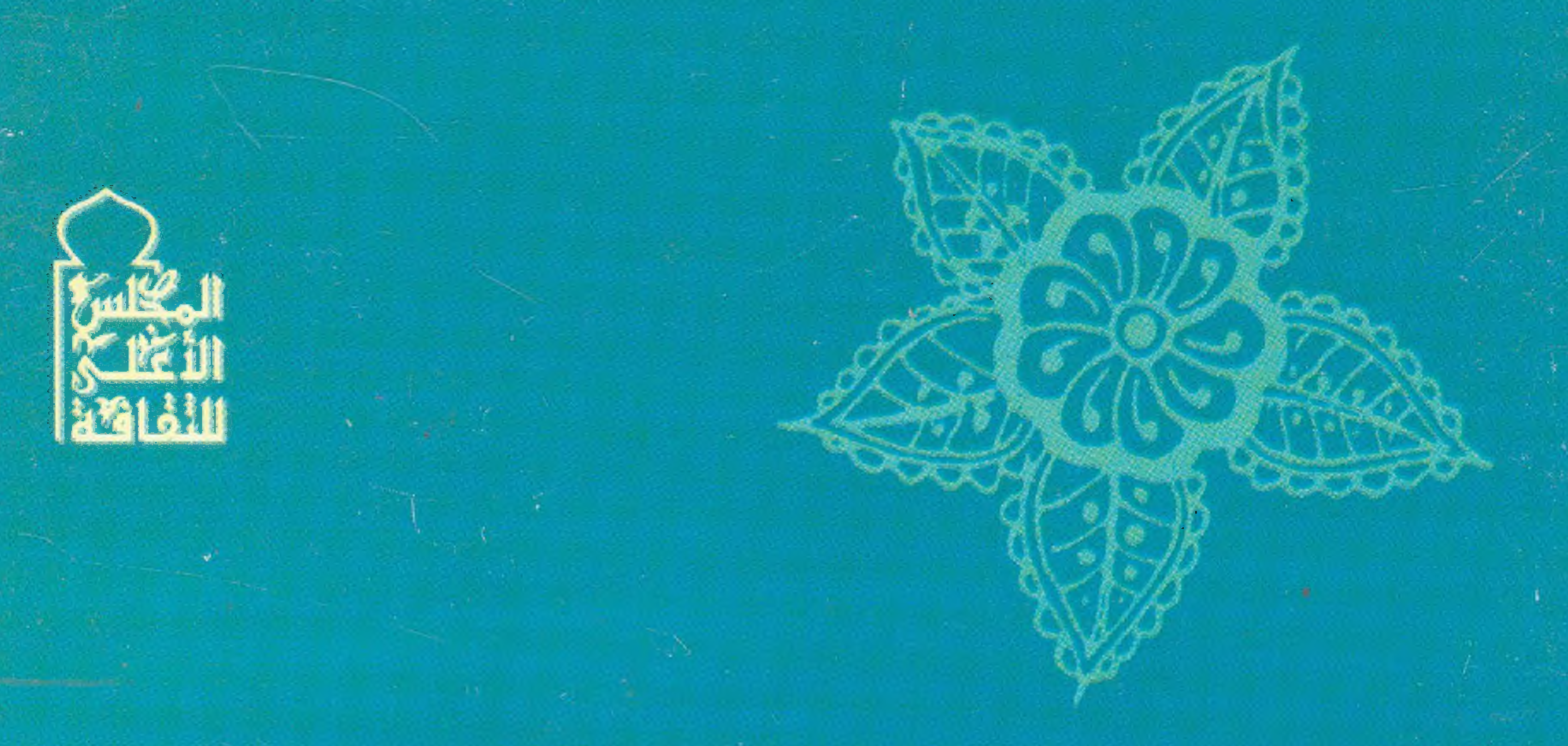


رواية

أحمد عمر شاهين

النخيلة



الخَيْلـولـة

الخيلولة

(رواية)

أحمد عمر شاهين

المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٢)

[شارع الجبلاية - الأوبرا - القاهرة]

ت : ٧٣٥٢٣٩٦ - ف : ٧٣٥٨٠٨٤

الغلاف للفنان : **يوسف شاكر**

أحمد عمر شاهين

الخيلولة

رواية

الخيــولــة

(روايــة)

أحمد عمر شاهين

إلى فهمي صابر

الخيلـولـة

جاء في لسان العرب تحت باب خَيَل:

خال الشيء يخال خَيْلا وخَيَلَة وخَيْلَة وخالا وخَيَلا وخيلانا ومخالة ومَخيلة وخَيْلُولة بمعنى ظنه وفي المثل من يسمع يَخَل أي يظن .

مللت من كــونى أنا، ومع ذلك أتوســل إلى الله دومــاً أن يعيدنى إلى ذاتى.

اميل سيوران

مدخــل

"الإنسان حبل مشدود بين الوحش والإنسان المثالى"

نيتشــه

هل تأتى على المرء فترة من الزمن يحس فيـها إنه قد تغيّر تغيّراً نوعياً؟ أى لـم يعد هو، وإنه شـخص آخر غير الذى عرفه، وإن ذلك الشـخص الذى عرفه يبتـعد عنه بسرعـة، لا يستطيع استعادته أو اللحاق به؟ وإن نفسه تنزلق منه فى مسار لا يعرف ما هيته، غريب عنه، لم يكن يحلم به .

عشت، حتى الآن، أربعين سنة، شقيت وسـعدت، استمتعت وتألمت، ربحت وخسرت كمعظم البشر، عشتـها قراءة وكتابة،

فرحا وحزنا، جنسا ولهواً، عملا وبطالة، ضيقا وقلقا، لكنى فى كل ذلك. كنت أشعر أنى أقف على الحد الفاصل بين شيئين : بين الاستمتاع والملل، بين السعادة والشقاء، بين الفرح والحزن، بين الجد واللهو، على الخط الفاصل، قليل من هنا وقليل من هناك، لم تتلبسنى واحدة من هذه الحالات بشكل كامل. عشت شبه حياة، فالقراءة كانت ولم تكن، واللهو كان ولم يكن، والشقاء من نوع خاص، والضجر والأرق والفرح كل له طعمه غير الطبيعى، أو هكذا تخيلت، فأنا لا أدرى ما هو الطعم الطبيعى، حتى الجنس، الذى أرهقنى كثيرا، كان ولم يكن، ذات مرة قالت لى إحدى المدربات على الجنس جيدا : ما هذا المزاج النصف؟ عشت هكذا بقوة اندفاع الحياة، ولم أشكُ .

ربما بدأ التغّير منذ فترة، لكنى لم أدركه وأرصده إلا أخيرا. كنت أرجعه فى بادئ الأمر إلى أسباب مختلفة كتلك التى يُعلل بها المرء نفسه، انتظاراً لعودة الأمور إلى طبيعتها، حتى لا يأخذ الموضوع بجدية كبيرة .

أصبحت إنساناً مختلفاً عما كنته بشكل أو بآخر، بطريقة قد

لا أستطيع تجسيدها تماماً، لكنها تميزت فى البداية بالرضا الكامل عن حياتي وفي الوقت نفسه بالرفض الكامل لهذه الحياة. قلبى يقول هذه هى الحياة التى أحبها وأريدها، وعقلى يقول هذه الطريقة فى الحياة لا تجب أن تحياها، وأحيانا لا أميز بين من يقول هذه أو تلك تبع ذلك شعور بالإحباط واللامبالاة تجاه جميع الأمور، لم يعد يشدنى أو يثير اهتمامى أى شىء، وانتابنى إحساس بأنى خدعت فى معظم من عرفت، وأنى ساذج. ثقتى فى الناس زائدة، وبالتالى ففجيعتى فيهم شبه كاملة .

ولم يعد يفرحنى أن أنشر مقالا أو أكتب قصة أو أكمل رواية أو أن يتحدث أو يكتب أحد عنى، ولم يعد يسعدنى الحديث مع الآخرين أو الاستماع إليهم، وأصبحت أضيق بكل شىء وحط عليّ ملل غريب وأرق متواصل، لم أعد أرغب فى شىء، لا قراءة ولا كتابة، لا فرجة على التليفزيون أو الاستماع للراديو أو مشاهدة أفلام الفيديو، أحب الاستلقاء مستيقظا أفكر بلاشىء، أو بالأحرى بأفكار مشوشة مرة بأمور جنسية مختلطة، وتارة بأمور دينية مبهمة، بحيث بت أعتقد بأنى على حافة الجنون أو

الانهيار العصبى. وانتابتنى الهواجس، فبت أرى وأسمع مالا يراه أو يسمعه الآخرون .

الأدهى أن بدأت هاتان الحالتان تتلبسانى بشكل مناوب، فأنغمس فى الجنس لدرجة الإنهاك، لأعود بعد ذلك وأنغمس فى العبادة لدرجة الإرهاق. فنبهني ذلك إلى التغير الذى انتابنى، وأوقفنى على عتبة يقظة لا أعرف إلى أين تقودنى، فبدأت أبتعد عن الجميع، وأعيش فى عالم من الأوهام أنا صانعه وصاحبه ومخرجه والمتفرج الوحيد عليه.

وحين تفاقم الأمر، خفت على نفسى، فقررت أن أختار بين الدين أو الجنس، بين التقوى أو الفساد، فلم يعد هناك مجال للمصالحة بينهما، إما الإنسان شبه الكامل أو النقيض تماماً. والقوتان تشدان بعنف. إما أن أختار أو أتمزق. ولأن كل من خفته هربت منه كما يقولون. إلا اللّه عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه، فقد حسمت الاختيار نظريا بعدما استشرت من استشرت، لكن عمليا فشلت. ووقعت فى دوامة أشد، وتفاقمت المشكلة بعدم وجود صديق أثق به أو يأخذ بيدى، فبعد عودتى

إلى البلد إثر غياب قسرى، تجنبنى أصدقاء الماضى أو تجنبتهم، واعتبرت تلك المرحلة من العمر انتهت ولن تعود، وألقيتها وراء ظهرى، وسكنت فى حى جديد، وبدأت حياة جديدة أردتها سعيدة لكنها لم تكن كذلك.

لكن لماذا استعجل الأمور .. تعال معى لتسير مع مجريات الأحداث منذ بدايتها أو نهايتها فقد اختلط كل شىء بكل شىء، ولم أعد أدرى فى أى طريق أسير .

* * *

القسم الأول

كل رغبة تبعث فى داخلى رغبة مضادة،

بحيث مهما فعلت لا أجد قيمة إلا لما لم أفعل.

"سيوران"

خرجت من عند الطبيب وفى رأسى دوار. حيرة لن ينقذنى منها إلا الله برحمته. ورحت أضرب فى الشوارع على غير هدى حتى كلّت قدماى. الساعة تقترب من منتصف الليل، وفوجئت بأنى فى شارع كلوت بك، هل هى المصادفة أم اللاوعى. وتاقت نفسى إلى الجنس. لقد قال لى ذات يوم إنهم يملأون الشارع، يقترب أحدهم منك ويهمس كأن الكلام ليس لك وكأنه يكلم نفسه. فنادق كثيرة تملأ المكان، ربما تستخدم لمثل تلك الأشياء، فهل أدخل لأسأل موظف الاستقبال عن امرأة بدل أن أسأله عن غرفة! استسخفت نفسى، عمن أبحث فى هذا الشارع؟ عن قواد يقودنى إلى من تشبع نزوتى! لقد كان هذا الشارع مسرحاً

لبيوت الدعارة فى الماضى، وحتى بعد أن ألغيت الدعارة المنظمة، ظل الشارع طويلاً يحتفظ بعبقها، لكن وقتا طويلاً مضى، ربما خدعك من أخبرك، فما الذى دفعك اليوم إلى هنا؟ المصادفة أم حماقتك؟ هل عجزت عن العثور عن فتاة حتى تستعين بواسطة إليها، عيبك فى تصديق كل ما تسمع، أليس من العار على رجل مثلك أن يسير فى الشوارع ليلاً منتظراً من يهمس له بكلمة ويجرّه من يده كما يُجّر الحيوان لتعشير دابة من نوعه! عد إلى بيتك، أو أذهب إلى البار القريب العتيق، ضع همك فى كؤوس الخمر، واصرف النظر عما انتويت .

حين وصل بتفكيره إلى هذا الحد، حث خطاه ليخرج من هذا الشارع المشبوه. هل هذا الرجل يهمس له؟ أبطأ الخطى، كان الرجل يقف أمام باب أحد الفنادق الصغيرة التى تحتل دورين أو ثلاثة فى بناية متآكلة. توقف، ثم عاد يسير الهوينى، حين اقترب من الرجل، نظر إليه الأخير نظرة لم تخف عليه، وهمس بشيء لم يتبينه، لكنه أدركه. سار الرجل فسار بجانبه صامتا يكاد يسمع ضربات قلبه .

سأل : هل المكان بعيد؟

- سنأخذ "تاكسى" إلى الهرم .

- ياه .. كل هذه المسافة .

- لكن المشوار يستحق. سترى ما لم تره في حياتك .

كان يود أن يسأله عن الثمن. لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، متوسط ما يُدفع معروف، ولو طمع في مبلغ زائد فلا مشكلة .

أشار الرجل إلى تاكسى، صعد وفى ذهنه تدور كلمة "لا مشكلة"، لكن المشكلة التي ضربت ذهنه فجأة. ماذا لو كان الأمر كله خدعة؟ كان دوماً يعتمد على نفسه في مثل هذه الأمور، ولا يوسط أحداً، فما الذى دفعه اليوم إلى المغامرة وارتياد هذا المركب غير المأمون؟ ماذا لو وقع فى يد مجرم عتيد، يقوده إلى مكان مجهول، يقتله، أو يهدده ويسرق نقوده؟ ارتعب لمجرد ورود هذه الفكرة على ذهنه. عاد ينظر إلى الرجل نظرة فاحصة. ليس قوياً بدرجة كافية، لكن الأمر هنا لا يحتاج إلى قوة. فقد يكون

مسلحاً بمسدس أو حتى بقرن غزال، سيأخذ نقوده، وسيعطيها له عن طيب خاطر بدل أن يخبطه خبطة واحدة قد تقتله أو تصيبه بعاهة دائمة أو حتى يجرحه، فالأمر لا يستحق. لكنه عاد يطمئن نفسه أن ملامح الرجل وسيمة، بل أنثوية، ليس وجه إجرام، حلاوة تحمل غدراً، وجمال وراءه الشر كامنا، أو أن أفكاره تهيىء له ذلك؟ الرجل يبدو مخنثاً، لكن ألا يوجد خطر من المخنثين؟ من الممكن أن يتغلب عليه. هل يطمئن نفسه أم يضحك عليها؟ لم يعد هناك مجال للتراجع والعربة تنطلق إلى الهدف، ملهاة أم مأساة، أيترك ذلك للظروف، المغامرة ابتدأت ولا سبيل للتراجع، لكن لماذا هذا الحتم؟ يمكنه أن يأمر السائق بالتوقف، يدفع له أجرته، ويعطى الرجل عشرة جنيهات أو حتى عشرين ويا دار ما دخلك شر. الوقت لم يفت بعد، وهم فى طريق رئيسى، الأضواء فى كل مكان، والشارع لا يخلو من الناس، وفى ذلك أمانه واطمئنانه، هيا، فلتطلب من السائق التوقف، لكنه لا يفعل، قوة أخرى داخله تمنيه بالمغامرة المقبلة، تتغلب على هواجسه، وضربته فكرة أخرى، لماذا لا يكون السائق شريكه؟

ربما كان الرجل يراقبه منذ دخل الشارع وقطعه أكثر من مرة. لقد توقفت السيارة قربهما وكأنها كانت فى انتظارهما. هل هناك ترتيب ما بين السائق والقواد؟ وعاد يحدق فى قفا السائق وجانب وجهه محاولاً أن يستشف من بعض ملامحه ما يؤكد أو يبدد شكوكه، لكنه لم يصل إلى قرار، حاسته السادسة تخونه، أو هناك ما يعطلها، الرغبة فى الجنس، أنه يخون نفسه، أو إن غريزته تدفعه إلى حتفه. أيلعن نفسه؟ ليس بعد، فلم يحدث شيء يستحق اللعن، أيجب عليه أن يأكل البيضة الفاسدة كلها حتى يدرك أنها تالفة؟ لم يفت الوقت بعد، ادفع وانزل، هناك ألف حل وحل، لكن أن تساق كالثور إلى المسلخ فهذا هو الجنون بعينه، كتم كل الأصوات داخله، وتشاغل بالنظر إلى الشارع كالمخدر .

"فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى".

وضع السائق شريطا من المصحف المرتل، زالت شكوكه دفعة واحدة، لكن فجأة طلب القواد منه الوقوف. ودفعه بسرعة لينزلا من السيارة، ترجل مرتبكا .

صاح : ما الحكاية .. هل وصلنا؟. توقفت قربهما عربة جديدة جميلة وكأنها هبطت من السماء، فتح بابها آليا وصعدا فيها، أراد أن يسأل السائق لماذا تعمل هذه العربة بالأجرة؛ لكنه كتم تساؤله، كل واحد حر، والزجاج غامق، وما أثار ريبته عدم استطاعته رؤية الشارع على عكس ما هو مفترض فى مثل هذا الزجاج. وعادت الشكوك تهاجمه، لكن لم يتح له الوقت لملاحقتها، إذ توقفت العربة فجأة، وقال الرجل وابتسامة عريضة على وجهه: تفضل .

نزلا، لا يمكن أن يكون فى منطقة الهرم، سلم حجرى يصعد عاليا إلى جبل، ضيق إلى حد لا يسمح لأكثر من شخصين بالصعود أو النزول. سلالم ملتوية، لم يقابلا أحدا، الوقت بعد انتصاف الليل، لكن هناك بيوتا مضاءة وأصوات سكانها تصله واضحة. ظلا يصعدان حتى بدا إنه لن يستطيع المواصلة. بدأ ينهج، وجلس ليستريح قليلاً. أيصعدان إلى حصن؟ لم يحل عليه مثل هذا التعب إلا حين صعد سلالم قلعة صلاح الدين التى تقع على جزيرة فى البحر قرب طابا على حدود سيناء، فكر فى

العودة، لكن الآخر جرّه من يده مستحثا له على الصعود قائلاً : ستجد ما يستحق هذا التعب .

السلالم تضيق، ولم تعد تتسع إلا لشخص واحد. تقدمه الرجل وهو يمسك بيده .

قال: الشرطة لن تستطيع مهاجمة المكان. أنت هنا فى أمان .

سأل : أين تقع هذه المنطقة؟ ستعرف .

وصلا إلى ساحة كبيرة على قمة جبل تحيطها البيوت، لا توجد منطقة مثل هذه فى الهرم، هل هما فى المقطم؟ وعلى أحد الأبواب دق الرجل، حين فتح الباب، دفعه برفق إلى الداخل قائلا: زبون جديد. اعتن به جيداً .

ومضى الرجل دون أن يأخذ أجرته. عجب لذلك، لكنه قال فى نفسه : الحساب يجمع. قاده فتى وسيم إلى قاعة فسيحة خافتة الإضاءة، مؤثثة على الطراز العربى، مراتب ومساند وشيش، لكن لا أحد. أشار له بالجلوس، فجلس فى جانب المكان، أمامه أربع شاشات تليفزيونية بدأت تبث إرسالها، تستعرض ثلاث

منها فتيات عاريات إلا قليلا، مختلفات الأشكال والألوان والأوضاع، الشاشة الرابعة تستعرض غلمانا بين الخامسة عشرة والعشرين، يرتدون وزرة حول وسطهم ولا يقلون جمالاً عن الفتيات. قال في نفسه: بالتأكيد هنا يصنعون أفلام الجنس. فكل هذه الاستعدادات ليست عبثا، أو من أجل نزوة فرد مهما كان قدره. لو مارس الجنس هنا فستكون صوره غداً على أشرطة الفيديو يتفرج عليها المراهقون والعجائز. ربما الكاميرات مبثوثة في كل مكان على الرغم من إنه لا يرى شيئا. دخل الفتى عليه ثانية يحمل كوبا من عصير المانجو وضعه أمامه قائلا: حين يقع اختيارك على أحد. اضغط على زر تثبيت الصورة على الشاشة، وناوله جهازا صغيرا كالروموت كونترول ومضى.

عاد ينظر إلى الشاشات والهواجس تلعب برأسه، ألا تكفي شاشة واحدة؟ ماذا يريدون منه؛ أو من يظنونه؟ كلهن جميلات ويرغبهن، لكن واحدة تخايله وتظهر على كل شاشة وهي الأفضل. وضغط على زر الجهاز، انطفأت جميع الشاشات،

ودخل الفتى ليقوده إلى غرفة داخلية، كانت تقف على بابها الفتاة التى اختارها. عاد الفتى دون أن يسمع خطاه .

أفسحت له الفتاة ليدخل. تبعته وأغلقت الباب .

سألها : ألا توجد كاميرات فى الغرفة ؟

نظرت إليه دهشة، وقالت : أتظن إنى أرضى بذلك!

قال بخفوت : لا أظن .

وتفحص جميع الأركان، وراء الدولاب وتحت السرير وفى الأباجورة الموضوعة على التسريحة، لا شيء، اطمأن باله قليلاً. نظر إلى الفتاة وابتسم، وبدأ يخلع ملابسه .

* * *

حين استيقظ وجد نفسه على قارعة الطريق، يجلس على بلاطة رخامية على محطة للباص فى شارع الهرم. أشعة الصباح تضربه ولسعاتها هى التى أيقظته. نظرات بعض الوقوف على المحطة ترمقه متعجبة. ما الذى حدث له؟ هل حملوه ونزلوا به كل تلك المسافة وألقوه هنا؟ وما الذى دفعهم إلى ذلك؟ مد يده بسرعة إلى جيبه، محفظته لا تزال هناك، فتحها، النقود مكانها، عجباً، لم يسرقوه، لماذا كل هذا الغموض؟ بدأ يتشكك فى مشوار الأمس أو بالأحرى اليوم، كله.

سأل رجل يقف على المحطة: هل أنت من سكان المنطقة؟

حين هز الرجل رأسه بالإيجاب سأله: أهناك منطقة سكنية تقع على جبل تصعد إليها على درجات حجرية فى مكان قريب من هنا؟

تمعن فيه الرجل، وحين رآه جاداً، قال: لا. لا أعرف مثل هذا المكان. نهض، وسار فى الشارع على غير هدى، وحين صادفه مطعماً دخل وطلب طبقاً من الفول بالزيت الحار وطبقاً من

الفلافل وسلاطة. كانت شهيته مفتوحة، أكل رغيفين، وخرج ليجلس على مقهى قريب، شرب كوباً من الشاى وفنجاناً من القهوة، وقال فى نفسه: وماذا بعد؟ ليس إلا العودة إلى البيت .

أشار إلى تاكسى، وقال العنوان للسائق، واستلقى فى المقعد الخلفى وأغمض عينيه. هل كان يحلم؟ لكن إذا كان الأمر كذلك فأين قضى ليلة الأمس؟ هل نام على الرصيف وتلك الحسناء؟ لا يمكن ان تظهر إلا فى حلم، لا يمكن أن تكون واقعاً، جمالها، احساسها، جسمها، علمها، ثقافتها، كلها، مستحيل أن يجتمع كل ذلك فى امرأة، كل الصفات التى يتمناها رجل فى امرأة، ليلة واحدة وكأنها ألف ليلة، وهذا إلى الحلم أقرب. ليرتب أفكاره ويسترجع الأحداث منذ بدايتها، يذكر ويذكر ويذكر لكن منذ شرب تلك الكأس التى قدمتها له من زجاجة اخرجتها من دولابها لا يذكر شيئاً. كأس واحدة لم يحتج غيرها ليروح فى سبات لم يستيقظ منه إلا على محطة الباص. لقد نومته، وحملوه وألقوه على الرصيف، لكن لماذا؟ سهرة لم يدفع فيها مليما، لماذا أيضا؟ هل يعشقونه أو يخدمونه من أجل عينيه؟

لابد من تفسير هو يعجز عنه، ولعل في مشاركته السر أحداً كشفا لمعمياته، لمن يستطيع أن يبوح بسره ولا يتهمه بالجنون؟ طبيبه النفسي؟ إن موعده بعد شهر، هل صادف أمراً كهذا إنسان من قبل؟ إن ما يحدث له في الأسابيع الأخيرة لا يبعث على الاطمئنان، أصبحت الغوامض التي تحيطه أكثر من الأمور الواضحة، والبوح للطبيب لم يأت بنتيجة مؤكدة، وما هكذا تسير حياة البشر .

قبل أن يصل إلى البيت، أعطى السائق عنوان فهمي، هو الوحيد الذي سيفهمه، وهو الوحيد الذي يمكن أن يرشده لما يفعله .

وجده مستيقظا، يدخن ويقرأ الجرائد ويشرب بيرة .

أشار له بالجلوس على كنبة أمامه، وسأله: مشكلة أخرى؟

قال: لن تصدق ما سأقوله لك .. لكن هل تشرب بيرة في الصباح؟

– وهل هناك أوقات محددة لشربها! هل أحضر لك علبة؟

– لا ياعمى .. هل تعرف منطقة الهرم كويس ..؟

– طبعا .. أنسيت إنى عملت فى مينا هاوس فترة .

– هل هناك منطقة جبلية يصعدون إليها بسلالم حجرية ..

قال فهمى بدهشة : فى الهرم !

– أيوه ..

– لا .. طبعاً .

قال كنت فيها بالأمس . فى الليل، ولم أتبين المكان، وفى الصباح وجدت نفسى فى شارع الهرم ..

– كنت سكران ؟

– لا أعرف .

صمت فهمى كعادته حين لا يقتنع بشىء، وشرب علبته فى جرعات متتالية.

قال : هل تحب أن تشرب قهوة معى ؟

– أشرب .

دخل المطبخ ليصنع القهوة، فصاح به : ألم يحضر الخادم اليوم؟

قال فهمى بأعلى صوته : اليوم إجازته .

– ولذلك استيقظت مبكراً ؟

– أنا لم أنم بعد .

– ولماذا تشرب قهوة إذن!

لم يرد . عاد ووضع الصينية على الترابيزة بينهما، صب القهوة ببطء.

سأله: أين تقع هذه المنطقة ؟

– أية منطقة؟

– التى يصعدون إليها بسلالم حجرية .

– فى قلعة الكبش ..

– أين ؟

– ليس فى الهرم على كل حال .. قل لى بصراحة أين ذهبت ليلة أمس .

– عند فتاة جميلة. لم تر عينى مثلها قط. لا أعتقد إنها إنسية.

وحكى له باندفاع وحرارة وسرعة كل ما حدث معه .

قال فهمى بدهشة: كل ذلك حدث فى الهرم؟!

– لماذا لا تصدقنى.

– ربما كنت تحلم .. ونمت فى الشارع .

– يجوز .. لكن لماذا لا يكون ذلك من فعل الجان .

– وهل تصدق هذه الخرافات؟

– ألم يأت ذكره فى القرآن .. الجن موجود. وهناك من يحضرونه وهناك من يمسهم أو يتلبسهم .

قال فهمى بسخرية : يعنى أنت تؤمن ان من الممكن لإنسى أن يعشق ويتزوج من جنيه؟

– ولم لا؟

وقال بعد تردد: لكن لا أظن ذلك يحدث فى وقتنا الحاضر ..

فى الماضى ربما .. حين كان الإنسان بدائياً وحدسه وحواسه لم يلوثها العقل والمدنية الحديثة .

سأل فهمى : وهل ستكتب هذه التجربة؟

تمتم الآخر بعد ان أشعل سيجارة وأخذ نفسا طويلا ..

– وهل يصدقنى أحد إذا كتبتها !

قال فهمى: أشكال الكتابة متعددة .. اكتبها فى شكل رواية عن إنسى عشق جنية ..

تنهد الآخر، أزاح فنجان القهوة بعيدا وقال : يعنى خيال يعبر عن خيال ..

– وهل ما رويته لى خيال ؟

– بل أغرب من الخيال .. ألا ترى معى ذلك ؟

– لكنك تقول بأنك مررت بكل ما قلته لى ..

قال بتردد وهو يمد ساقيه: مررت به بالفعل .. لكنى أصدقك ان الواقع الآن يختلط بالخيال، لا أدرى إذا كان ما نعيشه واقعاً

أم خـيـالاً .. ومـا إذا كنت أنت هو أنت وأنا هو أنا أو إن ذلك يخيل إلينا .. كأني أعيش وهما أكاد ألمسه ولا ألمسه، أو حاضراً ينزلق بين يدى لست على يقين إذا كنا نمر به أو يمرّ بنا فعلاً .. اللحظة ليست هى .. والشـىء غير الشيء .. والأمور مختلطة .. أتعجب من كونى أنا وأنظر إلى نفسى بغرابة ..

قال فهمى محتدا : يعنى تأتى إلىّ فى الصباح لتزعجنى من أجل أوهام تمر بذهنك .. أيعقل هذا ؟

قـال : لا واللّه .. كل كلمـة قلتـها حـقيـقة مـرت بى بالفـعل .. لكنى حـين أتشكك فى حـقـيـقة وجـودى .. ألا تريدنـى أن أتشكك بكل مـا مرّ بى .. أنا فى مـشكلة حقيـقـية يا فـهمى .. ألا تدرك ذلك؟

وقال فهمى ساخرا : وأنا .. هل ترانى حقيقة أمامك ..

صمت الآخر طويلاً ثم قال : قد تكون وهما يتجسد – وقد تتلاشى فى أية لحظة .. هل تستطيع أن تثبت إنك حقيقة ..

ابتسم فهمى وهو ينهض قائلا : إذا وصلت إلى هذه المرحلة

فلن أستطيع أن اثبت لك شيئا .

دارت عيناه فى الغرفة، بدا عليه الذهول ، ونطق أخيراً : والحل؟

- أكتب ما حكيته فى رواية ..

- وإذا لم أستطع؟

- اذهب إلى طبيب نفسى .. إما ذلك وإما الجنون .

ردد : الكتابة أو الجنون ..

حك رأسه، هرش بطرف ظفره تحت أنفه، ورفع عينا محمرة إلى صديقه وقال :

- هل أنت معى أو ضدى .

أخرج فهمى طرف لسانه، ولعق شفته العليا وقال : لا أعرف .

- أتتخلى عنى فى لحظة ..

صاح فهمى : أنا لا أتخلي عنك .. أنت تتخلى عن نفسك ..

موجود وغير موجود .. ما هذا الهراء الذى تتفوه به ..

تحسس الآخر جسده، أطرافه، وجهه، وشعره .. ثم مد يده برفق وتحسس وجه صديقه وهمس : أنت موجود ..

ابتسم فهمي، وتناول يد زائره وربت عليها وهمس :

– اكتب .. أو اذهب إلى طبيب نفسى .. جرب .. لن تخسر شيئاً ..

ضحك الآخر . استلقى على السجادة وأغمض عينيه وراح فى شبه سبات، قال فهمى بعصبية : ما هذا الذى تفعله؟ أريد أن أنام .. لم أنم منذ أمس ..

تمتم الآخر لحظات : لكنى ذهبت ..

صاح فهمى : هل ذهبت إلى طبيب نفسى؟

– جلسات وجلسات .. قال لى كلاماً غريباً .. ثم الحادثة التى وقعت لى أمس .. أنت لا تصدقنى .. الطبيب أنت تعرفه .. تناقشنا منذ سنوات طويلة فى بعض مقالاته .. إنه ..

وردد الاثنان معا اسم الطبيب. لكن لهجة فهمى كانت مشبعة بالدهشة، بحيث انتفض الآخر جالسا وكأنه سيتلقى خبراً مزعجاً ..

قال فهمى : ألم تقرأ جرائد اليوم ؟

- لم أقرأ شيء .

- متى كنت عند طبيبك آخر مرة؟

- أمس . خرجت من عنده فى التاسعة ..

- الحمد لله على السلامة ..

قال متوجسا : لماذا تقول ذلك؟ قال: بعد أن تركته بنصف ساعة مات .

- هل كتبوا ذلك فى الجرائد .. وكيف مات ؟

- انهارت العمارة التى فيها عيادته فى التاسعة والنصف مساء أمس .

وقذف الجرائد نحوه قائلا : كله مكتوب هنا .. كنت آخر

زبون يخرج من عنده .. أصابه الذهول وهو يقرأ، لم يعلق بشيء . نهض قائلاً الأمر أكبر مني ومنك لابد أن اتخذ قراري على مسؤوليتي الخاصة. هذه أمور لا يدخل فيها الغير شريكا .. كل إنسان معلق من عرقوبه كما كانت تقول أمي . لابد أن أذهب. اني اخاف عليك. انس أني زرتك .

وغادر على عجل، وسط دهشة فهمي وذهوله .

* * *

ذهبت إلى عيادة الطبيب بناء على موعد مسبق، ورغم ذلك فقدمي مترددة، وعقلي يأخذ ويعطي، قد يطلب معرفة تفاصيل حياتي الخاصة، فهل أكون صريحا تماما معه؟ أم أراوغه في بعضها وقراءاتي في علم النفس تتيح لي ذلك، لكن إذا انتفت الصراحة، ينتفي الهدف من الذهاب .

لابد من الصدق حتى في أدق التفاصيل، الحق كل الحق ولا شيء غير الحق، لا يجدي الرمز والتلميح هنا، أو التحدث في العموميات ورؤوس الموضوعات، التفاصيل مهمة إذا أردت أن

أفهم حالتى، وأخرج من هذا الجحيم الذى أعيشه، لكنى سأترك ذلك كله للحظة المواجهة والانطباع الأول الذى يتركه الطبيب فى نفسى، فليس لكل إنسان تبوح حتى لو كان طبيبا، والأمر كله يعتمد عليه .

العيادة مريحة، كراسيها توفر لك درجة من الاسترخاء، لم أجدها فى كرسى جلست عليه من قبل، حتى فكرت فى البحث عن هذا النوع لشراء بعضها .

السكرتيرة خفيفة الدم، غلامية التقاطيع مسمسمة، استرحت إليها، مضت دقائق الانتظار بسرعة، حتى لو طالت ما كنت سأمل، بداية موفقة .

غرفة الطبيب مكيفة الهواء، نقلتنى على الفور إلى جو آخر، ليس بسبب التكييف، بل لسبب يحوم فى جوها لم أدرك كنهه، كانت محكمة الإغلاق، جميلة الديكور، قليلة الأثاث، كل ما فيها يشعرك كأنك فى مركبة فضاء لا فى غرفة فى بناية على سطح الأرض، نظافة متناهية وسكون عجيب لم تحسه أذنانى من قبل،

يسكب على الأعضاء هدوءاً غريباً يكاد يبعث النوم فى العين .

الطبيب، متوسط الطول، منفرج الأسارير، أنيق الثياب بدرجة ملفتة، لديه ثقة بالنفس تلمسها منذ يمد لك يده لمصافحتك، فى مثل سنى تقريبا .

دار حول مكتبه . وجاء ليجلس على كنبة أمامى، لم يتكلم، وأصابنى البكم فلم أعرف كيف أبدأ، وانتابنى خجل لابد إنه بدا على ملامحى .

بادرنى بقوله : لماذا اخترتنى بالذات؟ هل أوصاك أحد بالقدوم إلىّ؟

قلت : لا، قال : هل جئت وحدك أم أن هناك أحدا من أقاربك ينتظرك فى الصالة، قلت : وحدى، قال : أنا مصغ إليك .

قلت : اخترتك بنفسى، فلقد قرأت لك عدة مقالات فى مجلة علم النفس .. أتابع مقالاتك منذ سنين ويعجبنى اطلاعك على مذاهب علم النفس المختلفة .

قال : هل تعرفني بنفسك ؟

قلت : هل ستسجل كل ما أقوله؟ أجاب : هذه هي الطريقة المتبعة .

قلت : متردداً : لكني لا أريد أن يكون حديثي إليك مسجلاً على شريط .

قال : السرية هنا كاملة، فلا تخشى شيئاً .

قلت : لا تعرف الظروف، لا أحد في هذه الأيام يضمن شيئاً.

- المفروض أن تكون ثقتك كاملة بطبيبك .

قلت : لولا هذه الثقة ما جئت إليك. سأكون أكثر راحة لو أقفلت التسجيل .

مد يده ليقف الجهاز وهو يقول : أمرك يا سيدى . تفضل .

وأمسك بنوته فى حجم الورقة الفولسكاب، وقلما، واستعد لتدوين ملاحظاته .

قلت : ليلة أمس، حلمت بأنى أذهب إلى طبيب أسنان مع

أننى كنت قد أخذت موعدا معك، لا أعرف ما العلاقة خاصة أنَّ أسنانى سليمة ولم أزر طبيبا بسببها من قبل. هل أقص عليك الحلم؟

قال : بداية غير طبيعية، لكنه فأل خير. فطبيب الأسنان يخلصك من الألم ولعلى أقدر أن أخلصك مما تعانيه .. أتفضل أن تستلقى على تلك الكنبة .. تحدث براحتك .

قلت : أكره الانتظار وأتجنبه. لا أحب أن أقف فى طابور. استغنى عن الفائدة التى ستعود علىّ منه. فلو وجدت مثلاً زبوناً فى دكان الحلاق، لا أدخل المحل، وألغى فكرة الحلاقة من أساسها وربما أظل كذلك عدة أشهر، لاشىء يضطرنى إلى الانتظار والوقوف فى طابور سوى شيئان: فى عيادة الطبيب وعند صرف المرتب. وقد أؤجل ذلك لكنى أضطر أخيراً خوفاً من استفحال المرض أو تعليق المرتب. كنت أجلس عند الحاج على البقال أسفل البناية التى أقيم فيها، يحدثنى عن ألم أسنانه والضرس الذى حشاه، سألنى فجأة: ألا تريد أن تحشو ضرسك؟ قلت له بدهشة: لكنى لا أشكو من ألم الأسنان، قال :

متى كشف لك طبيب عن أسنانك آخر مرة، قلت: لم أذهب إلى طبيب أسنان طوال حياتي. قال : آن لك أن تذهب، أنا أعرف طبيباً جيداً فتح عيادة في بناية قريبة. ابتسمت، وقد ظننته يمزح، تركته ومضيت، لكنه تبعني وأمسكني من يدي قائلا: اسمع نصيحتي أنا أخوك. قلت وقد بدأ الغضب يتملكني: أيعطيك الطبيب عمولة عن كل زبون تأتي به؟ قال : فعلاً، قلت : ابحث إذن عمن تؤلمهم أسنانهم. قال: أنت واحد منهم، اسمع كلامي وإلا سأزعل منك ولا أصرف لك التموين، قلت : أنا لا أصرف تموينا .. لكنني سأعطيك العمولة كم يدفع لك على الزبون؟ قال: لازم أحلل قرشي. لابد أن تذهب ويكشف عليك. قلت متخلصا منه : سأفكر بالأمر وأرد عليك. واستدرت، لكني فوجئت باثنين ضخمين يبرزان من ركن في الشارع، أمسكا بي وقال أحدهما بصوت خشن: لماذا لا تسمع الكلام؟ حاولت التملص منهما قائلاً : وما شأنكما بنا؟ قال أحدهما: اسمع كلام عمك علي وأرح دماغك. قلت: وإن لم اسمع؟ لويا ذراعيّ بعنف حتى إني صرخت، نظرت حولي باستغاثة، لكن أحدا لم

يلتفت إلينا، وازداد ضغطهما على ساعدى وهما يقولان: هل ستذهب؟ قلت : سأذهب، قالا : هيا بنا . سرت معهما مرغما، قطعنا الشارع إلى البناية المقابلة، فوجئت بأن عليها حراسة مشددة من الشرطة، دفعانى من الباب قائلين: اصعد، قلت : هل عيادته مزدحمة. لم يردا، توكلت على الله ، وصعدت سلم البناية إلى الدور الثانى حيث العيادة. فوجئت على الباب بيافطتين: الأولى لطبيب أسنان والثانية لطبيب عيون. طبيبان يقتسمان عيادة واحدة، أمر ليس غريباً. دققت الجرس ففتح الباب بطريقة آلية. دخلت، وجدتنى فى صالة مقسومة نصفين، كراسى حمراء على اليمين مكتوب على الجدار فوقها وتحت لوحة معلقة تصور حديقة جميلة بأزهار متعددة الألوان: عيون. وكراسى صفراء على اليسار مكتوب على الجدار فوقها وتحت لوحة تصور أمواج بحر تضرب شاطئا صخريا: أسنان. ولم أجد أحدا فى الصالة. قلت: لعل المرض عند أحد الطبيبين. أُغلق باب الشقة كما فتح، وجلست على كرسى من الكراسى الصفراء منتظرا. غرفتان مغلقتان، وحمام مكتوب عليه إنه كذلك. ومطبخ مفتوح يبدو فيه

الحوض والصنبور. تأخر الممرض فى الخروج، وفكرت فى دخول الحمام. حاولت فتح الباب فلم يستجب، لعل الممرض فى الداخل أو أحد الطبيبين دققت، فلم اسمع ردا. هناك زر قرب الباب كزر الجرس، لعله النور، ضغطت عليه، فتح باب الحمام. عيادة بالأزرار. دخلت وأقفلت الباب. تبولت، وحاولت الخروج لكن الباب لم يُفتح. بحثت عن الزر الآلي لأضغط عليه، لا يوجد زر في الداخل مماثل للزر الخارجى . ماذا يعنى هذا؟ هل أنتظر حتى يأتى من يريد دخول الحمام ليضغط على الزر؟ مصيبة، فلا أحد يعلم أصلا إنى فى الحمام، هل سجنت هنا؟ حاولت ثانية لكن لم يستجب الباب لمحاولتى، لم يبق سوى الدق باليد حتى يسمع الممرض ويأتى ليفتح لى.

دققت ودققت حتى كلت يداى ولا من مجيب. نافذة الحمام مغطاة بشبكة من السلك، وحتى لو كانت مفتوحة فكيف يمكننى الخروج منها والنزول من الدور الثانى؟ هل أتسلق وأنزل على المواسير؟ لا يمكن، لابد أن تكون هناك طريقة لفتح الباب. ضغطت على زر فانطفأ النور، أعدت إضاءته، ضغطت على زر

السيفون فقام بعمله، هناك أربعة أزرار أخرى من المؤكد ان احدها يفتح الباب .

ضغطت على الأول فاندفع هواء ساخن من فتحة جهاز التجفيف، ظل يعمل لمدة دقيقة أصبت خلالها بالرعب. ضغطت على زر آخر فانفتح باب فى الجدار لخزانة مملوءة بالزجاجات والأدوية والقطن وأشياء أخرى لا أعرف فيم تستخدم. أعدت إغلاقها وضغطت على الزر الثالث فانفتح باب بجانب الباب السابق ليكشف عن دولاب فيه العديد من المناشف والفوط والملاءات، أغلقته، لم يبق إلا زر واحد. وفيه يكمن الحل، وكالعادة، فأنا منحوس فى مثل هذه الحالات. فلو أردت مثلا ركوب باص من محطة يتوقف عليها أربعة باصات، يمر الثلاثة الذين لا أريدهم ليأتى المطلوب آخر القائمة، لو بحثت عن شىء فى درج من أدراج المكتب الأربعة، لا يمكن أن أجده إلا بعد أن أكون قد قلبت الأدراج الثلاثة. ليكون هو فى الرابع .. وهكذا، سميت، وضغطت على الزر الرابع، وقفزت مذعوراً. اندفعت فى البانيو كميات من المياه الدافئة ملأته، ثم أضيف إليها عدد من

الفتحات أنواع من الشامبو والصابون، وأصبح البانيو مهيئا لأن يستحم فيه المرء. لعنت جدود الحاج على واليوم الذى عرفته فيه والشرطة التى تساعده .

وخطرت فى ذهنى فكرة مجنونة، لا أدرى إذا كانت بنت أفكارى أو هاجس أوحى لى بها. خلعت ملابسى وعلقتها، وتمددت في البانيو وشددت الستارة، لتحجبنى عن .. عن من ؟ هل أتوقع أن يفتح أحد الباب من الخارج؟ من الغريب إنه لا يوجد للباب ترباس من الداخل !

كان الماء دافئا، بدأ يتحرك ويدغدغ كل أعضائى وكأن هناك من يدلكنى، وعملية تغيير المياه تتم بشكل دورى آلي، استرخيت تماما بل شعرت بأنى أعجز عن الحركة. تم ذلك ثلاثة مرات ثم اندفعت المياه لتغسلنى تماما وتتسرب من زوايا بطريقة لم أفهمها. معنى ذلك أن الاستحمام قد انتهى. نهضت، هناك ما يشبه الميزان قرب البانيو، لكنه ليس بميزان، وقفت عليه، فجأة ارتفعت فى الهواء وألقيت على الطاولة الرخامية الطويلة تحت فتحة جهاز التجفيف الذى اندفع منه هواء ساخن يجفف

جسدى، أصبت بالرعب ولعنت كل شيء، لبست ملابسى وقررت ألا أضغط على زر بعد الآن، وسأجلس حتى يمن علىّ اللّه بمن يفتح الباب اللعين. لكن قلت لأدق الباب للمرة الأخيرة علّ المرض يسمعنى، قبل أن أدق أمسكت بالإكره أشدها وأضغط عليها ، يا للمفاجأة، فتح الباب بسهولة وكأنه ينتظر من يلمسه، تطلعت خلفى أنظر إلى الحمام، خرجت وأقفلت الباب، لم يكن هناك أحد فى الصالة. واتجهت إلى باب الشقة. فتحته ونزلت.

كان الطبيب يدون بعض الملاحظات. حك رأسة بالقلم الذى يحمله، قال: أنا لم أعرف مشكلتك بعد. لكنها بداية موفقة وغير تقليدية. أجبنى بصراحة هل لك مشاكل سياسية مع أمن الدولة؟

علانى الاضطراب، وقلت متوجسا: هل يتضح ذلك من الحلم الذى سردته عليك؟

قال : تقريباً ..

قلت: ليست لى مشاكل مع أمن الدولة أو غيرها، فقد قطعت كل علاقاتى بالأحزاب والسياسيين وألقيت بذلك وراء ظهرى.. ومشكلتى لا علاقة لها بذلك..

قال: أنا الذى أبت فى ذلك.. لقد كانت لك تجربة معهم إذن.. وأنت تظن أن لاعلاقة بين هذه التجربة وحالتك.. لقد قابلتنى عدة حالات كان أصحابها يظنون ذلك.. لكن الإنسان كلٌ واحد.. لاشيء فيه ينفصل عن الآخر.. فكل شيء مترابط ومعجون ببعضه.. فقد تلقى السياسة ضوءاً على الدين وقد يلقى الدين ضوءاً على الجنس.. مهما رأيت تباعد الأمور عن بعضها.. بودى سعمت تجربتك التى قررت بعدها الابتعاد عن السياسة.. لكن لن أضغط عليك.. وأترك الأمر لك للتحدث فى الموضوع فى لوقت الذى تشاء.. لكن لدى سؤال.. هل سبق أن استشرت بخصوص حالتك التى لم أعرفها بعد؟

هل يمكن أن أدخن سيجارة.،، هز رأسه بالإيجاب.

شعلت سيجارة وقلت: لقد جئت إليك بخصوص موضوع .. يؤرقنى بنغص علىّ حياتى.. وأعتقد أن الحديث فى أى أخر قد يبعدنا عن الهدف الذى جئت من أجله، لهواجس التى تنتابنى وذلك الهوس الجنسى الذى يسيطر على ليل نهار ولا أستطيع التغلب عليه ويبعد عن نفسى

الاطمئنان الذى أتوق إليه وفى الوقت نفسه رغبتى الشديدة فى الابتعاد عن الجميع وعدم الاختلاط بأحد.. وحب العزلة.

قال: إلا من يكون هدفاً لرغبتك الجنسية..

قلت: فترة الممارسة فقط ولا أطيق أحداً بعد ذلك.. ولم استشر طبيباً نفسياً من قبل، لكن حين داهمتنى بدايات التغيير، وحرت فى تفسيرها انتحيت ذات يوم بعد صلاة العصر بشيخ الجامع الذى أصلى فيه، رجل وقور، مثقف، يحمل الدكتوراه من السوربون وسبق له أن ترجم بعض الأعمال لهيجل وهيدجر، قبل أن يتبحر فى علوم الدين ويختار طريق الإيمان، تستريح إليه النفس، يرى على رأى الرسول «صلعم» أن الدين يسر وما شاء الدين أحدا إلا غلبه، شرحت له حالتى كما كانت عليه آنذاك، فاضطرب وكأنه يواجه مثل هذه المشكلة لأول مرة، وأدخلنى فى دوامة فلسفية أدارت رأسى، وأدركت أن الرجل فى حيرة غلبت حيرتى، وإن مشكلته أكبر من مشكلتى، كان يتحدث وكأنما إلى نفسه ليتغلب عليها، وربما ساعدته رحمة ربه وكبر سنه، فتمالك جأشه، وربما يعيش مع شكوكه وتساؤلاته الكامنة، ويتوافق مع

حياته، والتسليم بما يأتى به الأيام، يجاهد بالعبادة والمكوث فى المسجد واللجوء إلى اللّه، نصحنى فى النهاية أن أدع الناس فى حالهم، وأكون مع الله ولا أبالى، لكنى مهما ابتعدت وانقطعت، كانت الأمور تعود لتتشابك حين تصل إلى الجنس، وأرتد إلى حالة أسوأ مما كنت الآخرون لا يدعوننى فى حالى، لا أسعى إليهم، لكنهم يسعون، وكنت ضعيفا استجيب لأول نداء، ولم يرد لى الله أن أهتدى، حتى فكرت فى الانتحار، أو قطع عضو الذكورة.

ضحك الطبيب وقال: العيب ليس فى الجنس.. أم تسمع قول أحد الحكماء قبل أن تهجر أصدقاء السوء أهجر أخلاقك السوء.. لكن منذ متى بدأت تشعر بأن التغير انتاب حياتك.. لا أعتقد أن المشكلة لازمتك طوال حياتك السابقة..

قلت: منذ سكنت هذا البيت الجديد.. بدأ التغير.. منذ تلك الفترة تقريبا..

قال: أود أن أعرف ظروف سكناك بهذا البيت الجديد..

وحياتك قبل أن تنتقل إليه.. وحكايتك مع السياسة.. إلى غير ذلك.. ولنؤجل هذا الحديث إلى الجلسة التالية.. فى مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم..

قلت: ألا يمكن أن تكون قبل ذلك..

نظر فى دفتر مواعيده وقال: بعد ثلاثة أيام.. يوم الاثنين فى مثل هذا الوقت أيوافقك ذلك؟

ناولنى روشته خط عليها بعض الكلمات وقال: حبة واحدة كل يوم.

هززت رأسى، وأنا أمد له يدى مودعاً.

* * *

قلت له: حين عدت من عندك المرة السابقة، ذهبت إلى البيت واستعصى علىّ النوم، ازداد قلقى وتوترى لأن لدّى موعد فى الصباح لا يمكن تأجيله، ولولاه لنهضت من السرير اقرأ فى كتاب أو أشاهد فيلما وليأتي النوم متى يشاء. فكرت، ربما المذياع المفتوح بجانبى هو سبب قلقى، فأنا أفتحه دوما عند

النوم، لأحصل على ضجة ثابتة بدل الضجيج المتقطع الذى يصلنى من الشارع، صوت دراجة نارية أو سيارة عابرة أو عربة كارو اعتادات أن تمر بعد منتصف الليل وتحدث ضجة توقظ الأموات، أقفلت المذياع. فعم السكون لحظات، ثم بدأت أسمع قطرات ماء تتسرب من سيفون الحمام، حاولت تجاهلها، لكن إلحاحها كان كذبابة سمجة، نهضت وأقفلت محبس المياه لأخمد الصوت نهائيا. وعدت إلى السرير، لحظات وبدأت دقات تتسرب إلى أذنى تمنع عنى الاسترخاء الذى أرجوه، والسكينة التى أطلبها. دقات ساعة رتيبة، غير مزعجة فى حد ذاتها فلقد تعودت فى سنوات ماضية أن أنام على دقات المنبه الموضوع على «الكومو» بجانب السرير، كان ذلك حين كنت فى الوظيفة، لكنى الآن لا أستطيع تحمل هذه الدقات، الغريب إنه ليس لدى ساعة دقاقة الآن، وقد أهملت المنبه وألقيته فى مكان ما مستغنيا عن خدماته، فمن أين تجىء تلك الدقات؟

أنصت بحذر، تارة تأتى من اليمين ، وتارة عن اليسار، ومرة من جهة القدمين، جلست فى السرير مذعورا، منصتا بانتباه،

رفعت المرتبة ونظرت تحت السرير، الحائط جهة اليسار والسرير يلتصق به تماما، لاشئ على "الكومو" سوى جهاز التسجيل وعلبة تضم شرائط المصحف المرتل بصوت الشيخ الحصرى، وقلم حبر وكراسة لتدوين الأحلام قبل أن تطير من ذهنى. وانتقلت الدقات لتأتى من عند القدمين، نظرت وبحثت، لا شيء سوى شماعة عليها بعض الملابس، ودولاب صامت صمت القبور. حيرة، وبدأت أصاب بالرعب، لم يعد النوم هو المشكلة، ولكن من أين تجيء هذه الدقات؟ وخطر فى ذهنى خاطر زاد رعبى، أيكون جنى يعبث بى؟ لا أومن بمثل هذه الأوهام. قد تحدث تهيؤات لبعض الناس لكن ليس لى، إلا إذا كان الأمر فى النهاية حقيقة وليس نوعا من التهيؤات. لكن لماذا يتقصدنى هذا الجنى؛ ولماذا هذه الدقات بصفة خاصة؟ عند هذا الحد استولى على الذعر تماما تلفعت بالأغطية حتى لم يبد من جسدى شيئا، تسارعت أنفاسى، وازدادت دقات قلبى، لكن دقات الساعة كانت أعلى منها، وتزداد علوا حتى لم أعد أسمع سواها، وبدأت أصرخ وأصرخ، حتى كان نور النهار. لم يكن حلما، كان واقعا،

فبماذا تفسر ذلك؟

سألنى: هل حدث لك مثل ذلك من قبل؟

قلت: إطلاقا. لكن منذ سكنت هذا البيت وأنا أشعر أن هناك من يشاركنى فيه لكنى غير متأكد من ذلك..

ـ هل تعيش وحدك؟

قلت: تزوجت وطلقت. ومنذ الحادثة الأخيرة وابتعادى عن السياسة ابتعدت عن معارفى وأصدقائى.. وانقلبت حياتى منذ الإقامة فى هذا السكن الجديد..

ـ هل لك موقف ما من تكوين الأسرة.. أم أن الأمر جاء بالمصادفة؟

قلت: أومن بأن الأسرة بما فيها الأهل والأقارب أيضا أكبر قيد على الحرية..

قال بتؤدة: بالفعل.. الأسرة تقيدك.. وعدم وجودها يعطيك حريتك كاملة فتعيش بالشكل الذى تريد، لكنها من ناحية أخرى تعطيك حماية تمنعك من ارتكاب كثير من الحماقات.. وتبعد عنك

مشاكل أنت فى غنى عنها.. لكل شيء جانبه السيء وجانبه المضيء.

قلت: وأنا الآن أتعرض للجانب السييء ..

قال: بالفعل. تعب البال. التوتر. القلق .. اسمع .. احك لى عما تسميه الحادثة الأخيرة التى تعرضت لها ..

قلت: هل لابد من ذلك يا دكتور ..

قال: الأفضل أن أعرف كل شيء .. من أجل مصلحتك .. سأعطيك حقنة تساعدك على الكلام..

قلت متردداً: أليس لها آثار جانبيه؟

قال بثقة: ربما على واحد فى الألف .. وهى آثار غير ضارة.. تطلق اللسان وتمنع الخجل.

جهز الحقنة بسرعة، مددت له ذراعى، واستلقيت على الشيزلونج.

وتحدثت وتحدثت وتحدثت. وعرفت من الطبيب بعد ذلك أنى

خلطت الواقع بالوهم، أو الوهم بالواقع، وإنى ربما كنت من أولئك الواحد بالألف، وكان قد سجل لى ما قلته على الرغم من عدم رغبتى في ذلك ، لذا أخذت الشريط منه، ولا أعرف إذا كان لديه نسخة أخرى.

الساعة تشير إلى النصف بعد منتصف الليل. من الطارق فى مثل هذا الوقت المتأخر؟ استعذت بالله ونهضت، تواصل الدق وعلا صوت تكسر خشب الباب. هبط قلبى. أحاطونى ودفعونى إلى الخارج، دون أن أغيّر ملابسى أو أحلق ذقنى. والقونى فى سيارتهم التى مضت مسرعة تطلق عويلها الطويل الممطوط الكئيب، وأفكارى دوامة لا أستطيع أن أتعلق بحبل منها فى دوراتها العنيف فى ذهنى.

توقفت السيارة:، منعنى الظلام من رؤية ملامحهم، كانوا بلا ملامح. أشكال آدمية لا تنطق. لاتعرف إلا لغة العنف البذيئة. وأنا مسالم أخاف من خيالي وأخجل أن ينطق لساني بكلمة نابية. نزلت من السيارة بدفعة من يد عصبية قوية، وجدتنى أمام كشك خشبى منصوب على قارعة الطريق، مضاء بلمبة حمراء،

والسكون يعم المكان، وعلى الإسفلت يربض شبح هيكل طائرة ميزتها من الألوان الحمراء المنبعثة منها، وضوء خافت يطل من بابها الجانبى المفتوح.

قلت فى نفسى: يارب استر.

سرت وسط زحام صامت. لا أدرى ماذا أفعل هنا أو ماذا يراد بى، وكأنى لست أنا فى هذه العتمة الخفيفة، منوم، دائخ، سكران أسير مترنحاً بنظرات تائهة، أرى الجميع وكأنهم لا يرونى، لا أشارك بالحديث لكنى جزء مهم من المشهد.

صاح شخص من داخل الكشك: أهذا ثالثهم؟

قلت : دون أن أميز ملامحه: إلى أين تذهبون بى؟

لم يرد دفعونى إلى باب الطائرة. رفعنى اثنان لأكون بداخلها. ظلام فى ظلام.

أقفل الباب، ودارت المحركات، وكأنهم كانوا فى انتظارى لينطلقوا. لا كراسى ولا أحزمة، لاسجائر ولا طعام. تدحرجت فاصطدمت بجسد آدمى. وركبنى خوف عظيم فوق خوفى الأول.

وصرخت: من هذا؟ جاءني صوته ضعيفاً: لا تخف نحن زملاء الرحلة.

قلت: من أنتم ؟ ما هي هذه الرحلة؟ وإلى أين نمضي؟

قال: مثلنا مثلك. لا نعرف شيئاً.

قلت وقد اطمئن قلبي قليلاً: تخيل إليّ أني أعرفك. ألست الصحفي مجاهد؟

وجاءني صوته: وأنا يخيل إليّ أني أعرفك .. ألست الروائي فلان.

قلت وقد زال خوفي: ومن معنا أيضاً؟

رد صوت ثالث: أنا الشاعر أمل.

قلت: صحفي وروائي وشاعر .. ماذا يريدون منا؟

رد الشاعر بسخرية: ألم تعرف بعد؟

قلت: عشرات الاحتمالات مرت على ذهني ولا أجد أحدها مقنعا.

ـ وهل لابد ان تقتنع؟

قلت: حتى فى الروايات التى اكتبها لابد أن يكون الحدث مقنعا وله تفسير.

قال الشاعر ساخرا: ألم تسمع عن اللامعقول؟

لم أنطق. لقد سمعت. وقرأت. وهاأنا ذا أرى.

قلت بعد لحظة: فليرحمنا الله.

خرجت لفظة «هه» من فم الصحفى بطريقة ساخرة.

قلت: نسيت أنك شيوعى؟

قال: تقصد إنى ملحد!

تدخل الشاعر: ضبطته مرة يصلى الفجر فى المسجد.

قال الصحفي: كنت عائدا من مكلمة حمى فيها الكلام.. وأذّن الفجر وأنا قرب الحسين، فوجدت نفسى بلا وعى أدخل المسجد وأصلي.. بينما كان هو عائدا من الخمارة..

قلت: لابد أن إحساسك بذنوبك كان عميقا.. فعدت إلى

فطرتك. لم يرد. وران علينا السكون. ولم يبق سوى صوت الطائرة رتيبا يخبط آذاننا. وتاه كل منا مع أفكاره.

برق ورعد. ورأينا أنفسنا في ضوء البرق الخاطف ورأينا ما حولنا واقشعرت أبداننا. وترنحت الطائرة. هل يستطيع الطيار ان ينقذها؟ ابتسمت. لو سقطت يكون ذلك أفضل الحلول.

قال الشاعر: فليفكر كل واحد بشيء جميل مر به في حياته.

قال الصحفي: من الصعب أن استحضر الآن شيئاجميلا مر بي..

عاد الشاعر ليقول: أو ما يخطر على بالكما من الأشياء السعيدة..

قبل أن ننطق جاء من يقيد أقدامنا وأيدينا.

لا تدخلوها من باب واحد وادخلوها من أبواب متفرقة.

من الذى همس بذلك، سألت الشاعر فقال: ربما الصحفى.

لكن الصوت لذى سمعناه ليس بصوته. تحسسنا مكانه فلم

نجده. همست: أين ذهب؟ همسنا باسمه فلم يرد. هل ألقوا به من الطائرة؟ أم نقلوه إلى مكان آخر. كتمت خوفى وتساؤلاتى وسكت.

أمور تحدث حولنا، نسمعها ولا نراها. ماذا يفيد الخوف؟ وأنا فعلا أخاف. قلت فى نفسى: مهما يكون الأمر أيكون أسوأ من الموت ! لقد عشت ما فيه الكفاية، فى رأيى على الاقل، فليمت المرء ليستريح من كل ما ينغص عليه حياته، ولا يوجد شىء لا ينغصها عليك، فليأت الموت حاسماً وسريعاً، لقد سئمت، وقوع البلاء ولا انتظاره كما كانت تقول أمى، والموت هنا لن يكون بلاء بل رحمة، الآن أفهم المعنى الحقيقى لقول المتنبى «وحسب المنايا أن تكن أمانيا»، انكسار الروح، ولولا الكتابة الروائية لأصبت بالجنون منذ زمن، لقد صدق من قال «اكتب لأتفادى نوبة، فى التعبير راحة، الكتابة انتحار مؤجل». يلاحقونك منذ تستيقظ فى الصباح وحتى تستلقى على سريرك آخر الليل. بل ويلاحقونك وأنت فى السرير، فى أحلامك بشكل كوابيس تحيل نومك إلى حياة فى الجحيم . يقضون على حياتك خطوة خطوة لتتحول فى

النهاية إلى شكل هلامى لا قوام له ولا هيئة ولا كيان. وعلى الرغم من ذلك فما زالوا يضغطون، يريدون سحق هذا الكائن الهلامى لا لشيء إلا رغبة فى السحق، وخوفا من شيء يرونه ولا تراه، وليصنعوا منك شيئا جديداً يديرونه.

وهأنت مرة أخرى، مقيد اليدين والقدمين، في طائرة مجهولة تتجه بك إلى مكان مجهول، وحيداً كخلد أعمى فى جحر، تتصارع أفكارك داخل رأسك دون أن تستطيع التعلق بحبل يقودك إلى طريق.

وحين أضاءت لمبة حمراء هذه الغرفة المتحركة، نظرت حولك فلم تجد أحدا سواك. أين ذهب الآخران؟ لا أبواب هناك سوى باب واحد، حتى الباب الذى يقود إلى كابينة الطائرة لا تراه. هل ألقوا بهما خارج الطائرة؟ لكن من الذى فعل ذلك ومن أين دخل وإلى أين يؤدى هذا الباب؟ أغمضت عينيك وسرحت أفكارك والرعب يشلك، كم هو جبان هذا الإنسان أمام المجهول، برغم عدم خوفك من الموت إلا أنك تخاف أشياء كثيرة غيره، الحيوان أكثر اتساقاً مع نفسه من الإنسان، فليس لديه عقل واع وآخر

لا واع، لايعرف إنه سيموت، لذا لايفكر فى العواقب، صريح ومباشر، يندفع بقوة قد يكون فيها موته، لكنه لا يخاف.. لا.. لا أظن ذلك قد لايعرف الحيوان الموت، لكنه يخاف أشياء كثيرة كما تخافها أنت.

ضوء مبهر يستمر ثوان، تفتح عينيك وتغلقها وتنقلب على جانبك. وفى اللحظة ذاتها ينفتح من تحتك باب تسقط منه تشهق قبل أن تفيق. تجد نفسك على كرسى أمام محقق يحدق فيك مبتسما.

بعدما زال الرعب الذى انتابك، وتبدلت ابتسامة الجالس وراء المكتب، سألك: ماذا تريد من الحياة؟

قلت: لاشىء.

صمت قليلا وقال: كل من سألته كان يريد الخروج من هنا.

ـ لكنى لا أريد الخروج.

قال: هل تستمرىء العذاب؟

ـ استمرىء الموت.

قال: غريب أن تطلب من الحياة.. الموت!

أُغمض عينى وأفتحهما وأحملق بشدة، الجالس وراء المكتب فتاة وليس رجلا، كيف لم أميزها منذ البداية، إننى فى حالة غير طبيعية، أم أنهم يتلاعبون بى؟

سألت برقة: لماذا تتمنى الموت.. الحياة جميلة.

ـ قد تكون كذلك بالنسبة لك.

قلت: ألم تسمع قول الشاعر كن جميلا ترى الوجود جميلا..؟

ضحكت

سألت: لماذا تضحك؟

ـ طوال عمرى أحاول أن أكون جميلا.. وأعتقد أنى نجحت.. لكن..

قالت: لم تر الوجود جميلا..

ـ الوجود جميل. لكن البعض جعلوه غير ذلك. قبحهم أفسد جمال الكون فى عينى.

قالت: وهل أنا قبيحة؟

قامت من وراء المكتب وسارت في الغرفة قليلاً، ثم جلست بقربي فاتحة صدرها .. عليه سلسلة تنتهي بقلب صغير.

كررت السؤال وهي تنظر في عيني.

قلت: أتصرين على الجواب.

قالت: من الأفضل أن تجيب.

ابتسمت بسخرية وقلت: أنت جميلة لكن.. موقعك يجعلك قبيحة.

تلقيت صفعة شديدة، ونهضت غاضبة.

صممت على عدم الكلام مهما حدث. وعادت لتجلس وراء مكتبها، تقلب في بعض الأوراق. قالت: أنا في عملي أحقق ذاتي.

لو لم أكن مقيداً، لرددت لها الصفعة.

سألت: هل أنت متزوج؟

لم أرد. نظرت فى الأوراق وسألت: ألديك أولاد؟ لم أرد

عـادت تنظر فى الأوراق: هل تمارس الجنس مـع زوجـتك بشكل جيد؟

لم أرد. ولم تنظر فى الأوراق: أشارت، فدخل قزم صغير فك قيودى.

فركت عينى، أغمضتهما، فتحتهما، الجالس وراء المكتب رجل عجوز بلحية طويلة. قلت في نفسي: تنتابنى الهلوسات وأنا لا أدرى يتـبـدلون وراء المكتب كـورق اللعب، الولد ثم البنت ثم الشايب. لأول مرة ألاحظ الديكور المحيط بالمكتب. إنها لعبة، لا أفهمها ولا أريد أن ألعبها.

سألنى الشيخ: هل تصلى؟

أجبت بنعم، قال: ولماذا تريد أن تموت؟

ـ لأنى لا أستطيع أن أحيا كما أريد.

قال: ومن الذى يستطيع.

ـ لم يصف قلبى بدرجة كافيه. مازلت أتعلق بحبال الدنيا..

لذا كرهتها..

قال: أصلحها.

ـ كما حاولت أفسدها الأخرون.

قال: ونحن من بين المفسدين طبعاً؟

ـ أولهم.

قال: فى رقبتنا مسؤولية كبيرة.

ـ هكذا يخيل إليكم..

قال: ألم ترتكب من الذنوب ما تستحق عليه العقاب.

قلت بحزم: لا

قال : تقولها بثقة..!

ـ إن غرورنا بكم فاق ملائكة بلا تواضع!

قال : غرور.

ـ حقيقة.

قال : لو أطلقنا سراحك .. ماذا ستفعل ؟

– وماذا بيدى لأفعله .

قال : يئست بسرعة .. !

– لم أيأس . حكمة الحياة . غيرى سيفعل وقولى لم ينته .

قال : يعنى ستقول ؟

– لن آخون نفسى .

قال : الأفضل أن تنسى إذا آردت الخروج من هنا .

– كلامى لن يضيرك .. وسجنى لن يفيدك .

سأل : هل أدركت اللعبة ؟

– أدركها منذ زمن . لكن لا أستطيع تغييرها آو اللعب حسب قواعدها .

نهض . وقادنى إلى الباب . أشجار نخيل ونهر يجرى من بعيد .

قال : الدنيا تغيرت . إما إن تتغير أو تدوسك الأقدام .

ودفعني خارج الباب ، فوجدت نفسي على الطريق .

وكتبت أفضل رواياتي حتى أعود . لم أنشرها ففي ذلك السجن أو الموت . وقررت وقتها أن أبتعد عن اللعب قرب تلك الساحة . فلست لأعباً أصيلا ولم أكن ، وقد حدث لي ما حدث ، فكيف لو كنت ؟

ومرت أشهر ، قال لي وقد جاء يودعني في المطار : القط يحب خناقه ركبني الغيظ ، لكن لا مجال للجدل الآن . فإما أن أصعد على هذه الرحلة ، أو قد يكتشفوا ورقة الخروج المزيفة ، وسيكون على ما قد يحدث لي .

لم يشك ضابط الجوازات في شيء . خروج طبيعي لكن الرعب لم يزاولني حتى أقلعت الطائرة . حين فككت الحزام استرخيت في المقعد العريض وأقبلت على الأكل بشيهة . فقد قطعت التذكرة بالدرجة الأولى ، فالسياحية كانت محجوزة مقدما ، وما كان باستطاعتي الصبر ، فقد طفح الكيل بي ، ولم أعد أحتمل إقامة يوم واحد إضافي .

كنت أشك فى إمكانية الخروج ، ولم آشك لحظة فى إمكانية الدخول . فالتآشيرة من القنصلية تملأ صفحة من جواز السفر .
وهبطت الطائرة ، وتقدمت من ضابط الجوازات . كاد يضع ختمه ، إلا أنه تردد قليلاً ، ثم قلب فى بعض أوراق بجانبه ، رفع رأسه وقال : انتظر قليلا .

وانتظر ثلاثين يوما ، فى غرفة صغيرة ملحقة بمبنى المطار ، لا توجد فيها سوى حصيرة وأربعة حراس يقفون أو يجلسون أمام بابها ، يتبدلون كل ثمان ساعات . همس لى أحدهم إن الأمر سيطول ، فخلعت ملابسى ولبست جلابية ونمت على الحصيرة أحملق فى السقف وتسرح أفكارى فى ملكوت الله الذى وسع الدنيا علينا وضيقناها على أنفسنا .

شهر ، يمر فيه العابرون عليك ، ليمكثوا ساعة أو بضع ساعات ثم يرحلون وأنت مكانك بجلابيتك البيضاء وحصيرتك الممزقة ، يلقون إليك بعلبة سجائر وبعض الطعام كما يفعلون بالضبط مع حراسك الذين ينتظرون هذه العطايا بفارغ الصبر دون كلام لكن عيونهم تفضحهم ، فقد كانوا أكثر بؤسا منك ،

كانوا فى سجن مثلك وإن كان أكبر . سجن الفقر اللعين الذى يحرمك من آلاف الأشياء التى تتمناها . الفقر ذل وقد كان ذلهم يبدو فى أعينهم وفى استكانتهم التى ينفضونها عنهم إذا مر بهم أحد الضباط المتباهين بسلطتهم ، وربما كنت أنا حديثهم على مائدة العشاء مع أسرهم أو على المقهى مع أصدقائهم . بعد أيام من المكوث فى هذه الفرقة السجن على بعد خطوات من صالات المطار وأرضه وممراته وطائراته الصاعدة الهابطة ، وبعد ما عرفوا قصتك وفقرك ، اعتبروك واحدا منهم على الرغم من أنهم حراسك ، وبدأ الواحد منهم يحضر لك من بيته قطعة بطيخ أو شمام أو حبة فاكهة ، وإذا غفل أحد العابرين من المسافرين الذين يحجزون لدقائق أو لساعات ، أن يعطيك سجائر كما يعطيهم ، لفتوا نظره ، وكأنك أصبحت بالفعل واحدا منهم . لقد كانوا يتوقعون لك الأسوأ ، وهم شبه متأكدين إنك لن تعبر أرض المطار إلا إلى طائرة تحملك إلى مكان بعيد . أصبحوا يتركونك تتجول حراً فى المنطقة المحيطة بالغرفة ، وبعد أن كان يرافقك أحدهم عند الذهاب إلى دورة المياه أو حين تريد

حلاقة ذقنك على الحوض ، تتجول الآن كما تشاء ، لكن هل كنت تستطيع الهرب والخروج من المطار مع كل هذه الحراسات والبوابات ، ثم ماذا كنت ستفعل وأين كنت ستمضى وأنت لا تعرف أحدا معرفة جيدة ، فالبلد فى النهاية ليست بلدك ، فمن الذى سيمد لك يد العون ويساعدك على الاختفاء ؟ وحمدت الله إنى حضرت معى أكثر من عشرين كتابا ، اخترتها من بين مئة كتاب تركتها فى غرفتى بالفندق الذى كنت أنزل فيه . كنت أخاف من زيادة الوزن ، فلم تكن النقود تسمح لك بأن أدفع عن تلك الزيادة .

وحين أشار الميزان إلى ٣٧ كم هبط قلبى ، لكن المسؤول علق رقم الشنطة بيدها ودفعها لتسير وسمح لى بالدخول . وكم استغفلت نفسى حين سألت : هل تسمحون للراكب بأكثر من عشرين كجم ؟ قال وهو يتطلع إلى الميزان وقد وضعت عليه شنطة أخرى : الدرجة الأولى مسموح لها بـ ٣٥ كجم .

ابتسمت سخرية من نفسى وأنا الذى كانت تؤرقنى طوال الوقت مسألة زيادة الوزن . كنت مغيوظا ، لكن غير منزعج .

فلقد تعودت الوحدة ولزوم البيت معظم الوقت، قلت فى نفسى ها هى فرصة قد حانت لتقرأ ما لديك من كتب، وكان يزعجنى خاطر يلح على ماذا لو قرأت الكتب ولم تحدث الانفراجة ؟ هل أعيد قراءاتها ثانية ؟ كنت أطرد الخاطر وأقول آنذاك لكل حادث حديث .

وأما مشكلة الأكل فلم تكن مشكلة . أربعة سندويتشات يوميا، وكم ضحكت من تفاهة احتياجات الإنسان الذى لا يملأ عينه إلا التراب .

وكأنهم ضبطوا أمرهم على ما أحمله من كتب .

استدعاءات وتحقيقات وأوراق تُملأ وعودة إلى الحجرة اللعينة كل مرة . حتى كان يوم استدعاء وسماح بالدخول . كل ما حدث أمر نأسف عليه . ختم الدخول آخر الشهر وختم الخروج من البلد الآخر أول الشهر .

ثلاثون يوماً قضيتها فى اللامكان . ماذا لو أعادونى ولم يسمحوا لى بالدخول ! كيف تقنع الآخرين أن هذه الثلاثين يوما

لم تقضها فى إسرائيل مثلا ، وكيف تثبت أنك كنت محجوزاً فى غرفة فى المطار ؟

ينكمش جسدى رعبا وأنا أفكر فى الاحتمالات، كل شىء جائز . لكنى رددت .. هو خير ما انتهى إلى خير .

ركبت سيارة أجرة، بعد أن وضعت حقيبتى الكبيرة فوق شبكتها، وانطلقت إلى شقتى . عودة سعيدة وأيام ميمونة بإذن الله، وحياة جديدة ليس فيها سياسة ولا أحزاب، لا مؤتمرات أو مهرجانات أو ندوات ولقاءات سياسية . تجربة واحدة تكفى فى هذا الوطن الذى لا يجدى فيه شىء سوى أن ينقص ويبنى من جديد . وهو أمر فوق قدرتى وقدرة الآخرين . وقد جعلتنى عزلتى الإجبارية أعيد ترتيب الأمور فى ذهنى وأرسم المستقبل بشىء من الروية والتعقل .

سألنى السائق : هل معك سجائر ؟

قلت : دخنتها كلها فى المطار .

باتت الدهشة على وجهه . قال الشاويش سعد الذى انتهت

ورديته وأصر أن يركب معى لأوصله إلى منزله ويأخذ الجلابية التى كنت أرتديها تحت حراسته :

– احتجزوه لمدة شهر . أحدهم بلغ عنه، دخن كل سجائره فى المطار .

وأصر أن ننزل أنا والسائق لنشرب عصير قصب من دكان العصير قرب بيته. وودعنى بحرارة متمنيا ألا أقع فى ضيق مرة ثانية.

لا أنسى له أنه عبر بى صالة الجمرك دون ان تفتح حقيبتى قائلا:

ـ كان محجوزا عندنا لمدة شهر .. خليه يروح يستريح ..

وكنت أخاف ان يأخذوا الكتب التى معى، فقد كانت بينهم وبين الكتب عداوة غير مبررة. نزلت. حملت الحقيبة الثقيلة واتجهت إلى مدخل العمارة. عمى محروس البواب لم يتحرك عن كرسيه. فكرت لعل نظره قد ضعف. قلت: ازيك يا عمى محروس؟

لم يتحرك أيضا وأجاب: الحمد لله على السلامة يا بيه .. على فين؟

قلت: أنت مش فاكرنى يا عمى محروس!

ـ فاكراك .. لكن شقتك أخذها صاحب البيت وأجّرها لشركة .. وعفشك كله فى المنور يا بيه .. قالوا ما حترجعش.

لطمة جديدة، وأين سأجد شقة فى ازدحام القاهرة؟

قلت فى نفسى: كنت تتمنى أن تعيش صعلوكا.. فحقق الله أمنيتك بأسرع مما تتخيل .. لقد كان خاطرا عابرا ذلك الذي مر بذهني، لم أكن أعنيه تماما، لكن أبواب السماء كانت مفتوحة، لقد صدقت أمى حين قالت: خذوا بالكم من دعواتكم .. فقد يستجيب الله لها، كان عم محروس قد وقف ليمنعنى من صعود السلم، وما كنت سأصعده على كل حال.

سألته: أين عفشى؟

قادنى إلى المنور، وفتح القفل الذى على بابه، وأشار إلى الداخل: هنا.

الثلاجة والغسالة والبوتاجاز فى حالة يرثى لها. دولاب مملوء بالكتب، ضلفته مكسورة وبعض الكتب قد وقعت على الأرض. دولاب الملابس مكسور وبعض الهدوم تطل منه ومن الواضح أن أيد عبثت به طويلا، أدراج المكتب مفتوحة وقد سقطت منها بعض الأوراق من بينها صورة سيدة، رفعت الصورة ونظرت إليها، ووضعتها فى جيب القميص، لو تأخرت قليلا ربما لم أكن لأجد شيئا، أين بقية الملابس؟ وأين أثاث غرفة الصالون؟ وأين وأين ..

قلت: أهذا كل شيء يا عم محروس..

- كل شيء يا بيه.

- طيب يا عم محروس. خليهم أمانة عندك. سآخذهم بعد أيام حين استقر. كنت هادئا تماما، وفكرت ما هذا الهدوء الذى حط عليّ، ومن أين جاء؟ هل العودة إلي نقطة الصفر تصيب المرء بشلل فى التفكير؟ كلما تخلصت من دائرة الصفر عدت إليها من جديد. فليكن. طعم الحياة مازال فيه بعض ما يدفع إلى الاستمرار.

وفكرت فى الجنس. شر البلية ما يضحك.

ركبت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يوصلنى إلى فندق كنت نزلت فيه أول قدومى إلى البلد. الفندق نفسه الذى عرفتها فيه. وربما لولا الصورة لما فكرت فى هذا الفندق، أسعاره معتدلة، ولعلها ظلت كذلك. أخرجت الصورة من جيب القميص ونظرت إليها، لماذا هى التى وقعت على الأرض؟ هل هى مصادفة. أول تجربة جنسية، لا لم تكن الأولى لأنها لم تتم. كنت فى الثالثة والعشرين وكانت فى العشرين أو أقل قليلا. كانت عاهرة تقيم بالفندق، اشتهيتها منذ رأيتها، وتفاهمت منا العيون، وترددت كثيرا قبل أن أذهب إلى غرفتها، فلم يكن مسموحا أن تتم مثل هذه الممارسات فى الفندق. لكن لم يكن هذا هو السبب الرئيسى لترددى. قضيت ليال أقلب الأمر هل أقدم أم أحجم؟ كنت خائفا. كانت المرأة بالنسبة لى لغزا كبيرا لم أحل رموزه بعد. وكنت أرى الجنس كل شىء، وأشعر بحماقتى لأنى وحتى تلك السن لم أعرف شيئا عن المرأة ولا كيف يكون شكلها عارية، حقيقة وليس صورا. كنت ألوم نفسى لأنى حتى تلك اللحظة لم

أغامر كما يفعل البعض، وإني كلما قررت الإقدام وكسر ذلك الطوق الذى فرضته حول نفسى أو فرضه الخوف أو الخجل اتراجع فى اللحظة الأخيرة قائلا: ستعرف كل شىء، عند الزواج.

لكن حين رأيتها، تمنيت أن تكون تجربتى الأولى معها، واتفقنا أن أمر عليها فى غرفتها فى السادسة مساء، فهى تخرج فى الثامنة ولا تعود إلاّ فى ساعات الفجر الأولى. وانتابنى القلق لمجرد التفكير إنى سأكون مع امرأة فى غرفة فى فندق. هل ستسر منى؟ هل أحسن التصرف؟ وكيف سيكون الأمر؟ وما أكثر شىء يسعد المرأة فى مثل هذه الحالات؟ نحيت التفكير جانبا وعدت لأكمل رواية نجيب محفوظ السراب.

أصابنى الرعب وأنا أقرأ عن فشل بطل السراب مع النساء، وسيطرت علىّ الهواجس، فكرت ألا أذهب، لكنى فى السادسة وجدتنى أنقر بخفة على باب غرفتها وأدخل، فقد تركته دون إغلاق. كان فى الغرفة سريرين، جلست بجانبها على أحدهما. أول مواجهة مع امرأة فى غرفة واحدة. هى لا تعرف ذلك، لكنى

لست أول رجل، ماذا اعتاد الرجال أن يفعلوا في مثل هذه اللحظات؟ لا أعرف. لكن أتيت لممارسة الجنس فهذا ما تقدمه ولهذا أنا موجود.

دقائق والصمت يكسره صوت تنفسنا فقط، ماذا أقول لها؟ تطلعت إليها ونظرت في عينيها، تنهدت ومدت يدها لتمسك بيدي، "يدك باردة"، لا. لا. قلت بسرعة. طال الصمت أكثر من اللازم، مر بذهني الآخرون وتجاربها معهم، ابتسامة خفيفة على شفتيها، وبرد غريب يلفني، جذبتها نحوي وقبلتها في خدها، قبلتني وأعطتني شفتيها، وارتمينا على السرير، قبلتها في فتور، رغبتي تهرب مني، خجل ممزوج بخوف، وبطل السراب يطل برأسه ليذكرني بتجاربه الفاشلة، سعيد بأني بين أحضان امرأة اشتهيها، وخائف من عدم استطاعتي إكمال التجربة. وبدأت استدعي تلك الصور التي كانت تبعث في جسدي ناراً لا تهدأ ولهيباً لا ينطفئ، وأتساءل لماذا لا يبعث هذا الجسد في أعضائي سوى برودة قاسية. لم تكن تفهم ماذا انتظر، وأنا أقبلها ببرود وأفكاري منشغلة بما تظنه بي، بدأت تساعدني في التغلب على

ما أشعر به من قصور، فزادني ذلك نفورا. حاولت أن أسألها هل سبق لها أن قابلت مثل هذا الموقف، تجاهلت تلميحي، وازداد خجلي.

فجأة، انتفضت واقفاً، ارتديت ملابسي وصعدت إلى غرفتي. استلقيت على السرير ساهماً، أدخن سيجارة من سيجارة.

مرت ساعات وأنا على هذه الحالة. وسمعت دقا على الباب. لم يكن مقفلاً، قلت: ادخل لكن الدق توالى، فنهضت بتراخ وفتحته. كانت تقف بالباب ومعها صبى فى حوالى الخامسة عشرة من عمره، يشبهها كثيرا، قالت: أخى فتحى، جاء الليلة مع أختى الكبرى. فى الغرفة سريرين كما تعرف، فلا يمكنه النوم معنا ولا نستطيع استئجار غرفة له، أرجوك أن تدعه ينام عندك فقط دون أن يعلم صاحب الفندق أو أى من الخدم.

قلت في نفسي: لولا ما حدث بيننا ما جئت به.

قلت: حاضر.

دخل فتحي، وجلسنا نتحدث قليلا. سألته عن مدرسته فقال

إنـه فـى الصف الأول الثانوى. لم يكن فى الغرفة سوى سرير واحد، سأتحمل الفتى الليلة فهو ظريف على كل حال.

قلت: الدنيا حر. هل تنام بملابسك؟

قال: اعتدت أن أنام بملابسى.

قلت: فى هذا الحر أنا لا أستطيع. أنام بالفانلة والكلسون. وأنت حر،

قال: أنام بالفانلة والكالسون.

علق بنطلونه وقميصه على المشجب. ساقاه جميلتان، وللعجب فقد بعثتا الدماء فى العضو الذى كان منكمشا.

اطفأ النور واندس بجانبى. واجهته واحتضنته، كانت رائحة الحليب تفوح منه، قلت: كوب قبل النوم أو إنه لم يفطم بعد. وكان ذلك الشىء شديدا كالحديد، وقد أحس به فازداد التصاقا بى. وبدأت أقبله بحرارة. ووقعت فى المحظور؟

فى اليوم التالى، حوالى الرابعة مساء، دق على باب غرفتى ودخل، قال إنه مسافر الآن مع أخته إلى الإسكندرية وجاء

ليودعنى. واشتعلت الرغبة، وكررنا ما فعلته بالأمس.

وقررت أن أنزل إلى شقيقته في غرفتها. شربت زجاجة زبيب صغيرة أصابتنى بالغثيان، لكنها شجعتنى. حيث دلفت إلى غرفتها بدأت أقبلها على الفور، كنت شديدا وذكرى شقيقها الذى كان بين أحضانى منذ ساعات تداعب خيالى، لكن حين هممت، انسحبت الدماء من عروقى. قلت: لابد أن أذهب إلى طبيب، وخرجت.

وظللت فترة أخاف الاقتراب من النساء، كن يملأن الفندق حولى، والإلحاح الجنسى يتزايد، خرجت من الفندق فى ساعة متأخرة من الليل، وبدأت أتجول فى شوارع المدينة. ولمحت صبيا كان يقفل محل حلاقة، لاغيته فوافق أن يصطحبنى. أخذته إلى الفندق. قلت له أن يصعد السلم إلى الدور السابع وآخذ أنا المصعد. لكن موظف الاستقبال رآه. لم يكلمه ولكنه كلمنى. قال: بعد أن تنتهى منه. اضغط جرس غرفتك حتى أصعد وأنهى معه. تم الأمر كما أردنا، لكنى كنت متضايقاً، وازداد ضيقى حين عدت، بعد يومين، إلى الفندق، فهمس لى موظف الاستقبال بأنه

اعتاد أن يذهب أسبوعياً إلى أحد الحمامات، وكان هناك صبى يقوم بالتدليك وإنه اصطاده، وهو الآن يجلس فى الصالة، وسيرسله إلى غرفتى بعدما أصعد. تضايقت من أن قدمى تنزلق أكثر وأكثر فى هذا النوع من الجنس .. فقررت أن أتوقف وأترك الفندق إلى مكان آخر. وقد كان.

كنت أخشى أن يكون موظف الاستقبال إياه مازال يعمل فى الفندق. لكنه لم يكن كذلك.

استأجرت غرفة لمدة شهر، وأنا لا أدرى كيف يمكننى أن أجد شقة فى زحام القاهرة وغلاء الأسعار.

هزنى الطبيب من كتفى قائلا: يكفى هذا اليوم. لكن لدى سؤال قبل ان تنهى هذه الجلسة .. هل مارست الجنس مع الغلمان بعد ذلك؟

- إطلاقا. منذ ذلك اليوم .. لقد مر حوالى عشرون سنة وأنا أدور مع النساء.

قال: كيف بدأ الأمر وتخلصت من الحالة التى انتابتك .. هل

زرت طبيبا؟

قلت: بالمصادفة يا دكتور. كنت أدرك أن السبب ليس عضويا. ذات يوم صادفت فتاة ظننتها للوهلة الأولى غلاما. رق قلبى لها، وصادقتها، لم أحاول أن أفاتحها فى الجنس، حتى توطدت علاقتنا. وذات ليلة تم الأمر ببساطة وهى تجلس بجانبى فى غرفتى. سعدت سعادة لا توصف لدرجة إنى عرضت عليها الزواج، وبالفعل تزوجتها لمدة ثلاث سنوات.

ـ ولماذا تركتها؟

ـ ضاقت ذرعاً برغبتى العارمة فى النساء. لم اكتف بها بعدما حلت عقدتى..

أصبحت أجرى وراء النساء .. أردت أن أمتلك كل واحدة أقابلها. تعثرت علاقتنا فتركتها. ومن يومها وأنا أدور فى ساقية الجنس حتى إنى كرهت نفسى واليوم الذى ولدت فيه.

قال: على كل حال سنحدد الأمور بدقة .. بعدما تنتهى من سرد حكايتك ..

قلت: ألا يكفى ما قلته حتى الآن ..

ـ ليس بعد. سنتناقش فى الأمر .. ربما بعد الجلسة القادمة.

* * *

ترى هل البناية ألتى انهارت كانت بالمصادفة أم أن هناك يدا لمن ضيعنى فى الهرم.. حين أخبرنى فهمى بالحادثة وقرأتها فى الجريدة خطر على ذهنى إن الأمر ليس مصادفة .. كنت قد خرجت من عند الطبيب فى التاسعة، وانهارت البناية فى التاسعة والنصف، فمات هو وسكرتيرته واثنان من المرضى. كانت تلك الجلسة الخامسة والأخيرة عنده ..

قال لى: أولا أحب أن أؤكد لك إنك إنسان طبيعى، بمعنى أن ليس لديك مرض نفسى يستحق العلاج. مثلنا جميعا. أقصد الناس العاديين. لكن هناك ظروف أحاطتك، جعلتك تتصرف بالشكل الذى تصرفت به. تجبن أن تواجه نفسك، المواجهة هنا مهمة، حتى ترضى بطبيعتك وتعيش حياتك العادية .. بنفس راضية كالآخرين.

قلت منشرحاً: الحمد لله .. يعني ما الذى عليّ فعله يا دكتور؟

قـال بهـدوء: يجب أن تفـهـمنى جـيـداً. أنا أشـخص حـالة وعلاجها. أنت عصبى وحساس وهذا أمر لا بأس به إذا لم يزد عن حده. يُفضل فى البدايـة أن تـغير سكنك وتبحث عن مسكن فى مكان آخر. تبتعد عن هذه الشقة التى سببت لك منذ البداية قلقاً مضاعفاً لما يشاع حولها .ويبدو إنك أخذت هذه الشائعة بمنطق الصدق .. أو على الأقل تشك فيها..

قلت: الجن خلق مـوجـود .. ولا يمكننى ان أنكر ذلك .. فـأنا رجل مؤمن.

قـال: يا سـيـدى أنا لا أنكر وجـودهم. لكن أنكر عليك أن تصدق إنهم يسكنون شقتك .. ومع ذلك افترض ان ذلك صحيح .. عليك إذن وببساطة أن تغير الشقة.

قلت: ذلك أمـر صـعب .. لكن من الممكن أن اسكن فى فندق حتي يفرجها الله.

قـال: ثم ان جـريك المسـعـور وراء النسـاء لن يحل مـشكلتك.

فأنت تبحث فيهن عن شيء لن تجده عندهن. لذا فأنت لن تتوقف عن البحث.. ولن تجد هذا الشيء..

قلت: يعنى لا يوجد حل لهذه المشكلة؟

قال: يوجد بالطبع .. وهو حل بسيط .. لكن أرجوك أن تفهمنى جيدا .. الحل هو أن تمارس الجنس مع غلام..

قلت دهشا: غلام؟

قال: هذا هو الحل .. إن ميولك تتجه إليهم .. وهناك تكمن راحتك.. وتنتهي مشكلتك..

قلت: لكن يا دكتور .. من يميل إلى الغلمان يلجأ إلى طبيب نفسى ليعالجه..

قال مبتسما: الميل إلى الغلمان ليس مرضا نفسيا .. تلك نظريات قديمة .. إنه ميل طبيعى .. لا يحتاج إلى علاج لأنه ليس مرضا.

قلت: أتتكلم جاداً ؟

قال: وهل فى العلم هزار ؟!

قلت: لكن هذا حرام يا دكتور .. وإذا زل المرء أو أخطأ مرة.. فمعنى ذلك إنه ليس حراما؟

قال: الخمر حرام لكن إذا كانت علاجاً فهى ضرورة ويزول تحريمها.. كذلك الدم والميتة وما إلى ذلك .. إذا نظرت إليها كعلاج فلن تكن حراماً .. اسأل إذا أردت أن تطمئن.

قلت ضاحكا: تريدنى أن أذهب إلى دار الإفتاء ليعطونى فتوى بأن ممارسة الجنس مع غلام حلال؟!

قال: إذا كانت علاجا لحالتك .. ثم داوم على استخدام الدواء الذى كتبته لك .. وتعال لزيارتى بعد شهر من الآن.

لا شهر ولا سنة يا دكتور، سنتقابل فى السماء بعد عمر طويل.

حين ذهبت إليه للجلسة الثالثة استقبلنى بترحاب شديد دهشت له. قادنى إلى "الشيزلونج" قائلا: لدىّ سؤال أرجو أن تجيب عليه قبل ان تستأنف ما تريد قوله.

قلت: هل كانت الجلسة السابقة مثمرة.

قال: مثمرة جداً. توصلت إلى عدة نقاط مهمة. لقد استمعت إلى الشريط مرتين. اكفهر وجهى واعتدلت فى جلستى، قلت غاضباً: ألم أشترط يا دكتور منذ البداية آن لا تسجيل.

قال: كيف يمكننى أن أدرس حالتك مادمت لا أستطيع سماع ما قلته أكثر من مرة.. أنا أقرأ الأحداث .. أفسر ما بين الكلمات .. ثم مما تخاف؟

قلت: أرجوك اعطنى الشريط ولا ضرورة للتسجيل إذا أردتنى أن أتعالج عندك.

تردد قليلا، لكن مد يده إلى أحد الأدراج وناولنى شريطاً وضعته فى جيبه. راودنى الشك إنه قد استنسخه، لكنى لم أسأله.

قال: لا أستطيع أن أكتب بالاختزال .. لكن ..

قلت: هل تستطيع السكرتيرة..

كنت قررت منذ البداية إغواء هذه الفتاة الجميلة التى تعمل سكرتيرة، ويسرنى أن تسمع ما أقوله، خاصة فى أمور الجنس،

فقد كنت استمتع ـ أحيانا ـ بإسماع الفتيات كلمات الجنس الفاحشة لأرى ردود أفعالهن، لا يهمنى حضورها بل قد يكون أفضل بالنسبة للخطة التى أرسمها لها، ترى هل هناك علاقة بين هذا الطبيب الشاب وتلك الحسناء.

قال: ذلك يتنافى مع أصول المهنة.

قلت: ألا تحضر الممرضات العملية الجراحية التى يجريها الطبيب..

ـ ذلك أمر مختلف.

قلت: لا مانع عندى من حضورها إذا كان ذلك يساعدك. ماذا كنت تريد أن تسأل؟

سأل: هل مازلت تعيش فى فندق أم وجدت سكنا مستقلا؟

قلت: وجدت سكنا والحمد لله .. لكنى منذ أقمت فيه تلخبطت أحوالى وربما بسببه أنا موجود هنا.

قال: أسرد كل ما يخطر ببالك حول هذا الموضوع..

نزلت الفندق الذى عرفت فيه فتاتى الأولى، صورتها التى سقطت من درج المكتب واحتفظت بها تسلطت علىّ بشكل غريب، على الرغم من أن حادثتى معها مضى عليها أكثر من عشرين عاما. المهم أن رغبة مجنونة استحوذت علىّ للبحث عنها، وقررت أن أجدها.

أشار لى بيده أن أتوقف. ضرب جرسا فجاءت السكرتيرة. همس لها بشىء فجاءت وجلست على كرسى وراء رأسى حتى لا أراها، غير مهم، فقد اعتدت إذا استطردت فى الحديث أن أغمض عينى.

قال: استمر.

- قضيت شهرا كاملا أبحث عنها، تفرغت لها، وعلى كل حال لم يكن لدىّ ما أفعله. كما لم يكن لدى أى مبلغ من المال يشجعنى للبحث عن شقة. درت فى كل الأماكن التى يمكن أن أجدها فيها، ملاه، فنادق، حانات، وكل ما يرشدنى فى بحثى صورتها واسمها الحقيقى الذى باحت لى به، وهى بالتأكيد تتخذ اسماً آخر كعادتها.

أحيانا أجلس فى حانة ورأسى بين يدى أفكر لماذا أريدها؟ هل هو الغرور؟ أو محاولة لإثبات رجولتك بعد فشلك معها منذ سنوات؟ ربما نسيتنى، ولم تعد تذكر شيئاً عن الأمر، وحتى لو تذكرت ما أهمية ذلك الآن؟ كانت تعمل كومبارس فهل مازالت فى المهنة نفسها؟ ترى هل أعرفها لو رأيتها؟ ربما ماتت، أو سافرت، أو عادت إلى بلدتها وتزوجت واستقرت وأنجبت. لماذا أحيانا نتمسك بشدة بأفكار تافهة تلح علينا ونتصرف كالأطفال؟ فلأنس الأمر والتفت إلى حياتى.

ضحكت ساخراً، نظرت حولى خوفاً من أن يكون هناك من يراقبنى. قلت: هذه ستكون حياتى.

حين ذهبت إلى مقر عملى، قابلونى باحترام مشوب بالخوف. سعدت. لم يتوانوا فى صرف مستحقاتى عن الفترة التى قضيتها مبعداً فى الخارج. وعدت إلى عمل مخفف لا حضور فيه ولا انصراف. كان ذلك يناسبنى ويناسبهم. لا أعرف ماذا خطر بذهنهم تجاهى، ربما اعتبرونى خطراً بشكل ما أو مجنوناً أو "مستبيعاً". أراحونى تماماً ولم يحاولوا الاحتكاك بى، مما

تناسب مع رؤيتى الجديدة للأمور، فلأبحث عنها فربما أجد فى ذلك شيئاً يسلينى ويشغلنى، فلقد ابتعدت تماماً عن الأصدقاء القدامى ومعظمهم له اهتمامات سياسية وحزبية، وقد قررت ألاّ ألقى بالاً إلى السياسة أو الأحزاب، وحتى أكثرهم لا يعلم أنى عدت.

حياتى الجنسية كانت خافية على الجميع، فهى أمور خاصة بى، لا أُعلم ولا أُشرك بها أحداً. لم أبحث عن الجنس فى هذه الفترة وإن جلست فى بعض الحانات أقتصر على شرب بعض زجاجات البيرة ونصف براندى وربما أقل. زرت الإسكندرية لمدة يومين، استكمالاً للبحث فى ملاهيها، قابلت صديقاً قديماً يقيم فى الثغر منذ سنوات طويلة. فى مجرى الحديث بحت له برغبتى فى العثور على فتاة كانت لى معها حكاية. كنا نجلس على مقهى على الكورنيش اعتدنا الجلوس عليها كلما هبطت الإسكندرية. ارتكز بظهره على كرسيه، ثم ضرب يدى بخفة وهو يقول:

- لن يجدها لك إلا فهمى .. أتتذكر زميلنا فهمى .. أو هل نسيته؟

هبت نسمة باردة أشعرتنى بالراحة. تذكرت فهمى وأدركت أنى سأصل إلى مبتغاى.

لكن هل هذا هو ما أريده؟

سألنى الصديق فجأة: مالك؟ إلى أين ذهبت؟

قلت بهدوء: هل تعرف عنوان فهمى؟

قال: أعرفه وأعرف رقم تليفونه.

قلت: أتأتى معى لنزوره..

قال: لا. أبعدنى عنه. فهو فى طينة أخرى لا أستطيع أن آخذ وأعطى معه فى الحديث. فلطالما تجادلنا واختلفنا وافترقنا. كل مرة ألقاه فيها يحتدم النقاش بيننا ويدب الخلاف. إنه كالترس الذى يدور حول محور اسمه الجنس. ربما مازال يعيش حياته بوهيمياً بالطريقة التى تحلو له. اسمعه وهو يقول أى مجتمع لن يصل إلى الحرية والديمقراطية التى يتمناها إلا إذا تحرر جنسياً، ماذا لو كان تعاملنا الجنسى غير مشوب بكل هذه المحاذير والنواهى والأوامر .. كلنا يمارس الجنس وكلنا يؤثر

فيه بدرجة أو بأخرى فلماذا نحاول إخفاء ذلك ..

لا يا صديقي لن أذهب معك ليصدع دماغي بأفكاره الفارغة .. ها هو العنوان والتليفون وأذهب إليه وحدك.

وذهبت إلى فهمي بعد موعد معه، في بناية جديدة في العباسية. شقة واسعة، متناسقة الأثاث، مريحة، فتح لي الباب خادم يرتدي زياً مميزاً، وقادني إلى غرفة جلوس تستخدم كمكتبة أيضاً. ربما عشر سنوات أو أكثر منذ التقيته آخر مرة. علاقاته متشعبة، لا أحد يعرف ماذا يعمل، وثار همس بين بعض الأصدقاء إن له علاقة بمباحث أمن الدولة، لم أتحقق من الأمر لكن ابتعدت عنه رويداً رويداً. يبدو من شقته أن أحواله ممتازة، فهو يعرف كيف يشق طريقه.

قدم لي الخادم كوبا من الليمون قائلاً: الأستاذ جاي حالاً.

على الطاولة المنخفضة كتاب بعنوان "أبطال وقبور"، تناولته، فتحته كيفما اتفق وقرأت "إنه لمن المروع دائماً، رؤية إنسان في وقت يعتقد فيه اعتقاداً مطلقاً وحازماً إنه وحيد. إذ يوجد فيه

شىء مأساوى وربما مقدس وحتى مريع ومعيب فى الوقت ذاته.
إننا دائماً نلبس قناعاً لا يكون هو ذاته باستمرار، بل يتغير وفق الأدوار المقررة لنا فى هذه الحياة. قناع المعلم، قناع العشيق، قناع المثقف، قناع الزوج المخدوع، قناع البطل، قناع الأخ الرءوف، ولكن أى قناع نضع أو أى قناع يبقى لنا عندما نكون فى عزلة؟ عندما نعتقد أن أحداً لا يرانا؟ ولا يراقبنا ولا يسمعنا ولا يسألنا ولا يتوسل إلينا ولا يتهددنا ولا يهاجمنا؟ لعل الطبيعة المقدسة لتلك اللحظة، تعود إلى أن المرء يكون حينئذ وجها لوجه أمام الذات الإلهية، ويكون على أقل تقدير أمام ضميره الذى لا يهدأ، ولعل أحداً لا يقفز للمخلوق الذى يباغته وهو عارى الوجه عرياً تاماً، ففى تلك الحالة التى تمثل أشد أنواع العرى وكمالاً تعرض النفس عزلاء لا تملك أى وسيلة للدفاع".

أدركت أن هناك من يراقبنى، رفعت رأسى عن الكتاب، كان فهمى يقف بالباب مبتسماً. أقفلت الكتاب ووضعته ثانية على الطاولة، سلمت عليه بحرارة. لكن لم نتعانق.

جلسنا. قال: هل أعجبك الكتاب؟

قلت: كنت أتصفحه حتى تجيء ..

قال: لقد قرأته. إنه جميل. خذه.

خبط على ركبتى بيده قائلاً: ماذا فعلت بحياتك؟

قلت دهشاً: أعيشها بطريقتى .. باختيارى.

قال بلهجة استغربتها: اختيارك خاطئ. اهتماماتك السياسية محض هراء .. انظر إلى أين قادتك؟ لا شيء يجدى فى مثل هذا العالم المتخلف.. عش حياتك مثلى ..

تضايقت. ما هذه البداية المزعجة، يبدو متحاملاً علىّ قبل أن أفتح فمى بكلمة. وقررت ألا أفتح فمى.

قال: أترى التهافت للفرجة على أفلام العنف والجريمة .. والأفلام العارية .. يلذ للناس أن يتفرجوا على ما يلذ لهم عمله ولا يستطيعون .. كالعقل الباطن يحقق ما يصبو له المرء عن طريق الأحلام لعجزه عن تحقيقها فى الواقع .. لماذا لا نعيش حياتنا بصراحة دون ظاهر وباطن بدل أن تركبنا الأمراض ونموت دون أن نحيا .. السياسة ووجع الدماغ لن يحققا أى

شـــىء .. لنشـــرب لنا كـــأســـيـن وتحـــدثنى بموضـــوعك بالتفصيل.

بالتأكيد لقد اتصل به صديق الإسكندرية، ولا أدرى ما أخبره عنى. لكن كلماته أهانتنى، كما إنها جعلتنى أشعر بالرثاء لنفسى. ما الذى حققته وقد بلغت هذه السن؟ روائى، مهنة لم تستطع أن تغنيك عن الوظيفة، تعيش كمن يدور فى ساقية، مثقف مفتوح العينين تدوخه الدنيا وتدور به ليقع ويعاود النهوض والدوران، وتدور الدنيا أمام عينيه ويقذف ما يفكر فيه كلمات على ورق، يقدمها لقارئ مجهول، يجسد فيها أحلامه وعذاباته. لكنه لا يعيش حياته، مربوط ومشدود إلى جملة من العادات والتقاليد والعرف والوظيفة والأسرة والحزب ولا يستطيع أن يحطمها ويخلص من كل ذلك ليعيش حياته، يضع الناس فى بؤرة اهتمامه، بينما هم لا يأبهون به، وها هو واحد منهم، يعيش حياته بالفعل، لكنه يهين حياتك وكرامتك بكلماته التافهة، لم أرد أن أدخل فى جدل معه، ليعتقد بى ما يشاء، الأفضل أن أقوم وأعود إلى فندقى.

قلت : فهمي .. جئت أسلم عليك وقد رأيتك بخير .. أتأذن لي ..

ضغط على كتفي فأجلسني في مكاني وقال مبتسما: والعاهرة التي تريدني أن أبحث لك عنها؟
إذن فقد صدق حدسي، أخبره صديق الإسكندرية بالموضوع.

قلت: كنت أمزح .. حجة فقط كي آتي لأراك..

قال: لا. لا. لم يكن هناك داع لحجة كي تراني .. أنت زعلت.. لكن لا تزعل .. لقد أزعجني ما حدث لك .. وكنت أخاف عليك .. وكلامي معك من خوفي عليك..

لننس الأمر وحدثني عنها .. اشرب كأسك ولا تكن حنبلياً..

ربما بان التجهم على وجهي، قال مداعباً: مازلت حساساً كما عهدتك. أنت بذلك تشعرني بعقدة الذنب .. هيا ابتسم.

مددت له يدي بصورتها بطريقة آلية مع إنني كنت قررت ألا أفعل. وذكرت له اسمها الحقيقي.
تطلع إليها وضحك، شعرت بالخجل بلا سبب واضح.

قال: لماذا تريدها؟ وبصراحة.

كانت لهجته تدل على إنه يعرفها، قلت: هل تعرف مكانها؟

قال: مهلا .. مهلا .. سأقول لك كل شيء .. لكن لماذا تريدها..

قلت خانقاً: يعنى لماذا أريدها يا فهمى؟.. كان لى معها ذكريات قبل سنوات بعيدة..

وكنت أفتش فى درج مكتبى فعثرت بصورتها .. فرغبت أن أراها وأرى ما فعله الزمن بها .. مجرد رغبة .. ليس للجنس دخل فيها ..

قال: إنها ساقطة من نوع رخيص .. عيش مع شاب صغير تصرف عليه كل ما تكسبه .. أتحب أن تراها ؟ ..

شعرت بغصة في حلقي، ترددت، ها هى قد أصبحت قريبة .. هل أواصل؟

قلت: لكن .. ماذا تعمل الآن؟

قال هازاً كتفيه: هه .. ماذا تظن إنها تعمل!. فى أحد الملاهى الصغيرة الحقيرة..

تفتح للزبائن وتعود آخر الليل مع أحدهم والولد ينتظر فى البيت ليخّدم عليهما ..

اسمع .. سأذهب معك الليلة إلى هذا الملهى .. نتفرج .. وننبسط..

لم أرد. وكنت أود الرفض. لكن لماذا جئت له إذن؟ الرغبة فى العثور عليها والتى كانت تضربنى كسوط، فترت، شعرت بأعصابى تتخدر. بعد أن وصلت إلى نهاية الشوط أتكاسل .. وتتراخى أعضائى بطريقة تدهشنى.

طاوعته برغبة مخدرة، لم أدخل ملهى فى حياتى، الناس الذين يحيطون بى لا أستريح إليهم، حتى فهمى بتهريجه وضحكه وتعليقاته البذيئة شعرت انى أنفصل عنه. راقصة تدور على الحلبة تحت أضواء خافتة، تهز ردفيها وتكشف عن ساقيها، كلمات فاحشة ترتفع من كل ركن وتنتهى الرقصة ويعلو التصفيق، لا أستطيع التركيز، أرى وأسمع كل شىء وكأنى غير موجود، أحس كأن الكلمات والضحكات تتقاذفنى يميناً ويساراً،

ربما من تأثير ما شربت، فأنا لم أتعود الشرب بهذه الكمية، أحاول الهروب من شيء ما، بدأت راقصة جديدة، لكزني فهمي بكوعه قائلاً بسخرية.

- ها هي حبيبتك يا سيدى.

حملقت في الراقصة، علني أتبين فيها ما كنت أبحث عنه، لكن ما الذي أبحث عنه؟ شهر من جنون البحث عن واحدة تعمل في كباريه صغير قذر لا أفكر بدخوله مهما كانت الأسباب، لكني دخلته. كنت أرسم لها صورة زائفة، الخيال يزيف الواقع ويفسده، ترقص بصعوبة، ضحكات استهزاء تعلو من آخر الصالة، وصوت مخمور يلعن العزوبية، كرهت نفسي، كانت تتمايل وتتلوى وتتعرى، عرفتها، لكن كنت على وشك القيء. ربما من الشراب والطعام الذي تناولته. رقصها عذاب، كل الحضور مخمورون وإلا كيف يرضون بالفرجة على أمثالها، اختنقت أنفاسي وجثم عليّ حزن ثقيل يختلط بالندم. ثقل جسمي حتى عجزت أن أحرك قدمي. رثيت لنفسي وعليها، كيف وصلت إلى هذا الحال؟ قلت لنفسي: هل رضيت الآن؟ الكلمات البذيئة تتناثر

فى الجو كقاذورات تندفع لتلطخ الحضور، يقشعر بدنى وفهمى يضحك ويهتز وأنا أشمئز، والراقصة تدور وتدور تعرض جسمها للحضور الذين يهللون ويصرخون.

ضربت فهمى على يده، نظر نحوى ضاحكاً، قلت: هيا، قال: والمحبوبة؟

قلت: كفى هذرا .. أريد أن أذهب. عن إذنك.

نهضت، جذبنى من ساق بنطلونى وأجلسنى: لم تنته بعد .. سأدعوها إلى مائدتنا. اندفعت أقول وأنا أحس كل أعضائى تتراخى وتتكمش: لا. لا. أرجوك..

قال: سترى إنها لن تعرفك .. فعشرات الرجال مروا عليها ..

علا التصفيق والهتاف وانتهت الرقصة. قام فهمى، ثم عاد يشدها من يدها وهى تبتسم. جلست. مدت لى يدها: ازيك يا أستاذ ..

قلت وأنا انتزع الكلمة انتزاعاً: أهلاً.

قالت بغنج الراقصات: هل أنت مكسوف؟

لم أرد. لم تعرفني. كرهت نفسي وفهمي والراقصات. لم أدر ما قلته أو ما الذى دار في ذهني أو كيف قمت وخرجت من الملهى مندفعاً ونسيم الليل يمسح وجهي فيفيقني .. سرت مسرعاً والضحكات مازالت ترن فى أذني، والمشهد السخيف كله يتراقص أمام عيني. فوجئت بفهمي يمسك بذراعي قائلاً: رويداً.. رويداً ..

قلت: إني أخجل من نفسي أن طاوعتك. كل مياه البحر لن تمحو هذه الصورة البائسة من ذهني.

قال: خليها فى ذهنك .. ما هى المشكلة؟!

قلت: لا أعرف كيف تتحمل هذه الحياة يا فهمى ..

قال: قل يا باسط .. أين تسكن حتى أوصلك ..

قلت: فى فندق قريب من هنا ..

قال: لماذا لا تستأجر شقة أرخص ..

قلت: أشعر أنى غير مستقر .. ثم من أين آتى بالنقود خلوا لشقة ..

ضحك وهو يقول: إذا كانت هذه هى المشكلة فلا مشكلة .. الشقة موجودة وبدون خلو .. ورخيصة.

قلت: يبدو أن الخمرة أسكرتك ..

قال: هناك واحد صاحبى عنده شقة. ويبحث عن رجل طيب يؤجرها له.

قلت : أتسخر منى؟

قال: أنا فى هذه الأمور جاد جداً ..

أخرج كارتاً من محفظته، كتب عليه عنواناً، وناوله لى قائلاً:

ـ هذا عنوان صاحب الشقة. له سوبر ماركت في العجوزة. اذهب إليه إذا أردت أن تستأجر الشقة.

قلت: هل رأيت أنت هذه الشقة ..؟

قال: ولا أعرف أين توجد .. لكنه صاحبى وسيؤجرها لك.. آنذاك لن تجد مشكلة فى معاملاتك الجنسية .. أعرف أن الفنادق متعبة من هذه الناحية خاصة إذا لم تكن خمسة أو أربعة نجوم .

وحين تصطاد "استتضف" .. كبرنا .. ولم يعد يرضينا إلا الشيء البريمو ..

سألته: هل لك رفيقة الآن؟

قال: لا أتخذ رفيقة دائمة .. كلما اجتاحتني الرغبة .. اصطاد أية واحدة ..

قلت: من الشارع؟

قال: ليس دائماً .. أحيانا أذهب إلى شارع كلوت بك ..

ـ لقد انتهى هذا الشارع من زمن..

قال بثقة: مازال، لكن ليست فيه فتيات، لو تمشيت فى الشارع آخر الليل ستجد من يقترب منك ويعرض عليك .. فتذهب معه .. يأخذك إلى شقة محترمة تقطن فيها فتاة أو اثنتان لهذا الغرض .. تختر ما تريد .. وإذا أعجبتك من الممكن أن تتفق معها وتعطيها عنوانك ويتم التواصل بينكما دون وسيط .. لقد واظبت على واحدة منهن ذات مرة أكثر من ستة أشهر .. كانت بنتا جميلة تعيش مع أسرة من رجل عجوز وزوجته ..

سألت: ويعرفون ما تقوم به؟

- بالتأكيد .. لكنها تبدو كأسرة محترمة لا يشك فيها أحد .. الدعارة المستترة وإلا كيف تسير الأمور بربك..

لم أخبره عن وسائلي الخاصة بالاصطياد، أردت أن أعود إلى فندقي، مددت يدي أسلم عليه، وفي نيتي ألا أراه بعد ذلك..

قال: أنت تعرف العنوان. اتصل وقتما تشاء.

قلت: إن شاء الله.

لكن الغريب في الأمر أن موضوع الشقة التي تحدث عنه كان صحيحاً، وأنا الذي فكرت أن أنسى الأمر واعتبره كلام سكارى.

استأجرت الشقة، وانقلبت أوضاعي، وتزعزعت أحوالي. تخلصت من مضايقات الحكومة، ووقعت في براثن مضايقات أخرى.

قاطعني الطبيب قائلا: لا تتجاوز موضوع الشقة .. احك بالتفصيل كيف استأجرتها؟

قلت: ذهب فى اليوم التالى إلى العنوان الذى حدده صديقى على "كرته" الفاخر. استقبلنى رجل نحيف يرتدى عباءة لا تليق عليه، يشبه فى شكله العام المخبرين. لم أسترح له، لكنى قلت فى نفسى مالك وماله.. المهم الشقة إذا كانت موجودة. لكن حين أخبرنى أن هناك شقة بالفعل، وإنها بلا خلو، وإكراما لصديقى سيؤجرها لى، بدأ الفأر يلعب فى عبى من كثرة ما قرأت عن الملاعيب التى يلجأ إليها البعض للنصب علي عباد الله. هل وقعت فى يد نصاب؟ ربما غيرت السنين فهمى فباعنى لنصاب آخر لقاء عمولة معينة. صممت ألا أدفع مليماً واحداً قبل أن أستلم مفتاح الشقة وأوقع العقد.

قلت: أين تقع الشقة؟

أشار بيده ملوحاً: قريبه هنا ..

قلت: أيمكن أن أراها؟

قال: طبعاً .. طبعاً ..

أخرج من درج طاولة نسختين من عقد قائلاً: وقّع هنا.

تناولت العقد وقرأته، عقد عادى، شقة غرفتين وصالة فى الدور الثالث من بناية فى شارع على الجارم، عقد سليم والأجرة معقولة.

تناول العقد من يدى ووقعه وناولنى القلم، قلت: أفضل أن أرى الشقة أولا.

ابتسم وقال: على راحتك .. هيا بنا.

سرنا على الأقدام مسافة يسيرة، منطقة جميلة وهادئة وعمارة متينة، قلت لقد قدّم لى فهمى خدمة العمر، وإنى لمحظوظ، فلا يمكن أن يجد المرء شقة بهذه السهولة.

الغبار يملأ المكان، والأثاث القليل الموجود مغطى بالتراب، والشقة منظرها لا يسر، قلت من الممكن ترتيب كل ذلك.

قال: إذا أردت العفش فلن نختلف. ادفع ماتراه .. ثم اجرة ستة أشهر مقدما وتأمين شهر.

قلت: لا أحمل نقوداً الآن ..

قال: ادفع عربون. غدا تحضر باقى النقود. إليك المفتاح.

كنت سعيداً منتشياً، وأشعر أن ثلاثة أرباع مشاكلى قد حلت. وحمدت الله أن الأمور سارت بهذا الشكل. وعزمت أن أعطيه النقود على الفور وأبدأ فى تنظيف الشقة وترتيبها دون الانتظار إلى الغد، حتى أستطيع السكن فيها أول الشهر.

صعدت السلم إلى الدور الثالث، الدور شقتان، وقبل أن أضع المفتاح فى الباب اتجهت إلى الشقة المقابلة وضربت الجرس. فتح لى رجل بملابسه الداخلية، وقف فى فتحة الباب متسائلاً، قلت: أنا جاركم .. استأجرت الشقة المقابلة و..

وقبل أن أنهى كلامى كان قد أقفل الباب فى وجهى. ضربت الجرس ثانية، لكنه لم يفتح.

قلت فى نفسى: كل واحد حر .. رجل قفل.

وضعت أدوات التنظيف التى أحملها على الأرض، ودرت بنظرى فى الشقة وخطرت لى فكرة، نزلت بسرعة دون أن أقفل الباب، واتجهت إلى مكوجى يشغل دكاناً فى العمارة المجاورة، وسألته عن سيدة يمكن أن تقوم بتنظيف الشقة.

قال: سيادتك ساكن هنا.

قلت: استأجرت شقة في العمارة المجاورة نمرة ٦ .

قال كلمة " آه " طويلة ممطوطة تحمل ألف معنى.

قلت: ماذا تعنى يا أسطى؟

قال: لن تجد من تنظف لك الشقة فى هذه الناحية.

قلت: ولماذا يا معلم؟

قال: ألا تقرأ الجريدة ..

قلت دهشاً: وهل جاءت سيرتها فى الجرائد .. هل قُتل فيها قتيل؟

قال: يا ريت.

قلت: حصلت فيها مصيبة؟

قال: أنت رجل طيب .. الشقة لامؤاخذة مسكونة.

ضحكت: مسكونة يا أسطى ! أيوجد من يؤمن بهذه الخرافات .. !

قـال: أنا راجل مـؤمن .. والله لولا إنى شـفت بعـينى .. مـا صدقت. تصدق بالله أكثر مدة قعدها ساكن فى الشقة ثلاث شهور ويعّزل بعد المصايب ما تتكوم فوق دماغه..

قلت ساخراً: يا سلام ! ومن الذى يروج مثل هذه الشائعات !

قال: شائعات ! آخر مرة من ستة شهور .. جاءت الحكومة برجالها ولم تستطع فعل شىء .. شبابيك تفتح وتُغلق بلا سبب.. أوان ومواعين تلقى من النوافذ .. نيران تشب فى الحيطان دون داع .. رعب بعيد عنك.. والجرايد كتبت والمصورون صوروا .. باين عليك غريب ..

قلت: فعلا يا معلم. كنت مسافراً .. على كل حال .. فى أزمة الشقق الموجودة لابد مما ليس منه بد.

قال برنة ساخرة: يمكن يتوافقوا معاك .. أصل كل واحد وريحه.. وربنا يهدى.

وقفت فى الشارع حائراً، هل أخاف الصعود إلى شقتى؟

صعدت السلالم ببطء وخوف، لو تركت الشقة ستضيع نقودى، ثم أين سأجد شقة بعد ذلك، هل كتب علىّ الإقامة فى الفنادق حتى آخر العمر؟ أين ذهب العلم والثقافة والإيمان؟ كيف أجبن لمجرد كلام فارغ يقوله رجل أمي؟ سأصعد وأنظف الشقة بنفسى وأثبت .. أن لا شيء من هذه الأوهام حقيقي .. أنا متأكد من ذلك .. وهرولت صاعداً.

بدأت تنظيف الشقة والخوف يرافقني. ورويدا رويدا أخذت الشقة هيئتها، وهدنى التعب استلقيت على السرير، ونمت كالقتيل. فى الصباح استعدت أثاث بيتى وكتبى من عند عم محروس، وأزحت الأوهام من ذهنى، وبدأت أشعر بالاستقرار.

مضى أسبوع التعب والتوضيب والترتيب، وشراء ما ينقصنى، وزالت المخاوف تدريجياً. خاصة إنه لم يحدث شيء يزيدها.

لكن قبل أن أشعر براحة البال، وأتنفس بارتياح، عادت المخاوف تطل برأسها، ويركبنى القلق والتوتر وشعور بعدم

الاستقرار قبل أن يمر شهر واحد على إقامتى فى الشقة.

استيقظت فى الليل، وكأن هناك من ينام بجانبى على السرير، ويدفعنى لأسقط عنه. لم أكن أحلم، فقد استيقظت والدفع مازال مستمرا. أضأت النور برعب، لم يكن هناك أحد. قلت فى نفسى هلوسات بالطبع، وعدت للنوم وأنا اقرأ آيات من القرآن الكريم. لكنى أحسست بالآخر وأنا على مشارف النوم إحساسا يقينياً. ظللت مستيقظاً حتى الصباح، ونمت فى النهار.

لم يزد الأمر عن ذلك خلال الأشهر الثلاثة التالية، هناك من ينام بجانبى على السرير، يدفعنى أحياناً ويحتضننى أحياناً أخرى، فانهض مذعوراً، أضئ النور، ويطول أو يقصر الوقت قبل أن أعود إلى النوم لأستيقظ على الإحساس بهذا الآخر.

عايشنى خوف من نوع غريب، لم يدفعنى للتفكير فى تغيير الشقة وما كنت مستطيعاً ذلك، وقررت أن أتوافق مع الأمر مادام لم يتعد هذه الحدود. لكنى كلما دخلت البيت ينقبض قلبى

وأتوقع كارثة لا تحدث، وأظل متوتراً، أبلبع حبوباً مهدئة، اقرأ وأكتب قلقاً، لا أشعر بالاطمئنان وراحة البال إلاَّ فى لحظات الجنس التى بدأت آسعى وراءها بكل وسيلة، على الرغم من مشاعر الندم التى تنتابنى بعد كل ممارسة، فأنا رجل مؤمن ولدى إحساس كبير بالذنب تجاه هذه الأمور.

وجلست مع نفسى ذات ليلة، لمراجعة كل ما حدث لى منذ سكناى فى هذه الشقة، هل هذه هى الحياة التى أريدها؟ وما هذا الذى يحدث لى؟ لا أشعر بالراحة والاطمئنان إلا مع واحدة تكون بجانبى، هل هى دعوة للزواج؟ ربما يكون ذلك هو الحل، قلت بصوت عال وأنا انهض لدخول غرفة النوم: لابد أن أتزوج. فجأة انطفأ النور، وهبت نسمة باردة آصابتنى بالقشعريرة على الرغم من أن كل النوافذ مقفلة، تلا ذلك صوت تحطم الأطباق التى كانت على الطاولة هل اصطدمت بها أم أن شغل العفاريت قد ابتدأ؟ تحركت بصعوبة، انفتحت الشبابيك وأغلقت بصوت عال، وجدت نفسى أقول: لعنة الله على الزواج ومن يريد الزواج الغريب أن النور عاد وكأن لم يحدث شيئا فى الشقة. وأصبح

الجنس هدفا أسعى إليه، وعزوت ذلك إلى الخوف الذى يحيطنى وبحثى عن الاطمئنان فى أحضان أخرى ولو للحظات، لكن ذلك لم يكن صحيحاً، لأنى أصبحت لا أرى ولا أسمع شيئاً سوى ذلك النداء الفاجر الذى يحيل المرء إلى حيوان همجي، لا يفكر إلا بتلبية ذلك النداء، كنت أخرج كالمجنون أبحث عن فريسة، وغالبا ما كنت أجدها، أسبقها أو تسبقنى فى صعود السلم والتسلل إلى الشقة، لم يكن أحد يهتم أو يعلق بشيء حتى لو لاحظ، فالكل فى حاله ويحاول البعد عن المشاكل قدر الإمكان، ومادمت لا تتدخل فى حياتهم فلا يتدخل أحد فى حياتك، خاصة وسمعة الشقة المسكونة سيئة وربما أصبحت سمعتى كذلك دون أن أدرى، لكنى كنت أحافظ على المظاهر، إذا كان الصيد من مكان بعيد، كنت أستأجر سيارة تلقينا فى مكان قريب من البيت الذى نتسلل إليه دون أن يبدو علينا ذلك، وأحيانا إذا كان الصيد جميلا ودرجة الهيجان عالية، فلا بأس من التسلل إلى مدخل إحدى العمارات حيث يكون جميع السكان نيام والسكون يعم المكان، أحيانا تكون البناية مظلمة وأحيانا مضاءة، لكن ذلك

لا يشكل فرقاً، ويتم كل شيء على بسطة السلم الثانية أو الثالثة، ويفضل البنايات التي فيها أسانسير، حدث ذلك عدة مرات، وسارت الأمور على ما يرام، يخرج كل منا منفرداً، وقد نتقابل بعد عدة أمتار لنتحدث قليلاً، ثم أركب سيارة وأعود إلى بيتي وقد هدأت نفسي وانزاح توتر الأعصاب، فأجلس للقراءة أو الكتابة قبل أن يعود ذلك الشعور فيرهقني ويؤرقني، فأفكر في الصيد الأخير، والشيء الذي يميزه، يدور ذلك في خاطري، وأسرح قليلاً، لماذا تكون المتعة أكبر في مثل تلك الظروف؟ مع أن كل شيء يتم بسرعة وبلا طقوس على الإطلاق، فالخوف يحكمنا وأي خطوة حتى لو كانت في الشارع توترنا، هل فعلاً أمتع الحب ما أخذ اغتصاباً؟ لكن أين هو الحب فيما أفعله، وأين هو الاغتصاب؟ أما الصيد الذي يدخل القفص، أقصد الشقة، فحكايته حكاية. أتفنن آنذاك في إعداد المائدة، مائدة الاستمتاع بما حملته شراكي. الخبرة الشخصية قد تبدو ضئيلة بالنسبة للخبرات المتنوعة والمتعددة التي أضيفت إلى خبرات المرء من قراءاته الكثيرة، والتي يحاول تطبيقها مما يزيد في

استمتاعه وتحسين أدائه. وبعد جولة طويلة فى مثل هذه الكتب ركنت إلى الطاوية أو الطريقة الصينية القديمة فى الممارسة، وهى تحتاج فى الأساس إلى اطمئنان نفسى وألا يكون المرء متعباً جسدياً أو عقلياً أو عاطفياً، وغالباً ما يتحقق ذلك وأنت فى بيتك. مشروب دافئ أو بارد حسب الظروف، وكثير من المداعبات والقبل، ثم تسير الأمور إلى وضع يسعدك ويسعدها. حتى لو لم تكن آلتك منتصبة تماما، وهو ما قد يحدث أحيانا.

يكون الصيد قلقاً عند دخوله الشقة، على الرغم من عدم معرفته إشاعة أن الشقة مسكونة، واعتقد إنه لو عرف لما اقترب من البناية أصلاً. كان ينقل إلىّ قلقه فى البداية، لكنى تعودت على ذلك بحيث أصبحت أنقل اطمئنانى إليه حتى لو كان اطمئناناً زائفاً، فلدّى شعور دائم بأن هناك من يراقبنا. لكن كنت استمتع بالعمل تحت هذه المراقبة، قد يكون ذلك مرضاً نفسياً. أرجو أن تضعه فى اعتبارك وأنت تخطط لعلاجى، مع إنه غير مهم بالنسبة لى. كنت أهتم كثيرا بالقبل، وقد تدفعنى

الشفاه فقط إلى اختيار الصيد، فالقبل تأتى بالدرجة الأولى عندى، ولا تعجبنى الشفاه الممسوحة أو الغليظة أو الفم الواسع، ولاحظ يا دكتور العلاقة بين الشفتين والشفرين، ربما أنت تعرف ذلك. لكن ما أثار انتباهى اختلاف طعم القبل، وتساءلت كثيراً بينى وبين نفسى من أين يأتى ذلك الاختلاف؟ أهو من الطعام؟ أم من مرض ما يسكن جسد ذلك الصيد؟ أم أن الأمر خلقة طبيعية كتعدد أنواع الفاكهة وطعمها وأشكالها، أرجو إن كان لديك إجابة عن ذلك أن توضحها لى، فلكل قبلة مذاقها الخاص، لا أقصد بالمذاق هنا اللذة الحسية أو المعنوية أو كيفما تكون تلك التى نشعر بها حين نقبل، بل أقصد المعنى الحرفى، هنا قبلة بطعم الجبنة، كلما قبلت هذه الفتاة استمتع، لكن طعم الجبنة هو الغالب على القبلة، ودوما، بمعنى لو تكررت المرات على فترات مختلفة، وهناك قبلة بطعم البيض أو التفاح أو الجوافة، من أين يأتى هذا الطعم؟ أهو منى أم منها، على الرغم من أن الأكل هنا لا علاقة له بالموضوع فقد تأكدت من ذلك، ومازال الموضوع يحيرنى حتى الآن.

أقول لك جلست لأقوم بمراجعة شاملة لحياتى، فبعد كل ممارسة أشعر بالاشمئزاز وبكراهية للجنس، وأعد نفسى بعدم تكرار ذلك، لكن سرعان ما يتحطم ذلك الوعد تحت موجة عاتية تجتاحنى فأعود.

لكن فى ذلك اليوم اختلف الأمر. كنت مستلقياً على السرير استمع إلى برنامج دينى فى إذاعة القرآن الكريم. كنت افتحها أغلب الوقت، طرداً للشياطين، وحباً فى السماع أيضاً. فجأة تسللت كلمات المتحدث إلى قلبى، وكأنى كنت نائماً فاستيقظت، مخدراً وأفقت، سارحا وانتبهت. هز كيانى الحديث، وأدركت أن حياتى قبله لن تكون كحياة بعده. وقررت أن أبدأ الصلاة من الغد، على أن أستحم فى الليل استحماماً يزيل كل أدران السنوات السابقة إذا كان ذلك ممكناً، بل وسأشترى ملابس داخلية جديدة فلن أستخدم ملابسى السابقة أبداً.

اطمأنت نفسى وهدأت، واسترخت أعضائى المتوترة دوماً، وقلت: حياة جديدة بإذن الله، ولتذهب الدنيا إلى الجحيم، سأقتصر فى قراءاتى على الكتب الدينية وأستعيد نفسى

المطمئنة وأتخلص من النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة التي عاشرتني سنوات وسنوات. ولأني كنت سعيداً بنفسي، فقد وضعت فيلما في الفيديو اسمه "الناي الصامت"، شدني الفيلم، فقد كان يتحدث عن قصة الخضر عليه السلام، يخرق السفينة، ويقتل الصبي، ويقيم الجدار، ويسير في الصحراء للوصول إلى ملكوت لا يعلمه أحد. فيقابل شخصاً يعتبر آلة الإنسان هي مصدر ومبعث كل الشرور، فيقطعها ويعيش بدونها ويدعو الآخرين للعمل مثله، فإذا قطع الإنسان آلته فإنه يفقد آلة الفسق ويعيش تائباً رغم أنفه ويحمي نفسه من الشرور.

وضربني الهاجس في أن أفعل مثله، خاصة وأنّ بذور الشر بدأت تمد رأسها وتحرضني على مالا أريد. وبالفعل ذهبت إلى طبيب للمسالك البولية ليقوم لي بالعملية، ظنني في البداية عضوا في جماعة دينية متطرفة، حدثني عنها، لكني شرحت الأمر له بالتفصيل، اقتنع بوجهة نظري، لكنه رفض إجراء العملية ونصحني بالتوجه إلى طبيب نفسي .. وقد كان لنصيحته الأثر الكبير في قدومي إليك.

قال الطبيب بثقة : اتضحت الآن كثيرا من الأمــور .. فــى الجلســة التـاليـة سـيكون لدينا حـديثـا لاسـتـيـضـاح بعض الأمور.

* * *

استقبلتني السكرتيرة بابتسامة مشجعة، قلت لها باسما: ما طعم قبلتك؟ كريز! ضحكت، قلت: يوما ما سأعرف. أشارت إليّ أن الطبـيب فى انتظارى. دخلت حملت مفكرتها وتبعتنى. قلت للطبيب: هل هناك أمـل؟

قال: الأمل دائما موجود.

أخذت جلستى، وقلت له: أنا جاهز لأسئلتك..

قال: أفـهم عدم رغبتك فى الزواج وتكوين أسرة، وعلى الرغم إنى أخـالفك فى ذلك، إلا إنك حـر فى هذه الناحـيـة .. أنت ترى الأسرة قيدا على حريتك وأنا أراها من ناحية أخرى حامية للمرء من كثير من الانحـرافات والتـهور والمواقف المحـرجة. لكن لماذا

تقيم وحدك؟ لماذا لم تحاول السكنى مع صديق أو رفيق، وأى أحد لا يشكل قيداً على حريتك وفى الوقت نفسه يعطيك إحساساً بالتواصل الاجتماعي والأمان ويبعد عنك القلق والتوتر اللذان قد تسببهما الوحدة أحيانا..

قلت: دكتور.. يبدو إنى لا أستطيع أن أحب أحداً ولا حتى نفسى.. ربما لعيب فى الناس أو عيب فى ذاتى .. استيقظت أمس وأنا أشعر بالارتياح لأول مرة منذ شهور، فأدركت أنى نمت نوماً عميقاً، نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، كانت الحادية عشرة، لقد نمت حوالى ثمانى ساعات. خرجت إلى الصالة، فوجئت بكومة من الكتب على الطاولة، لا أذكر إنى وضعتها هناك. وخطر لى خاطر هل أمشى أثناء النوم؟ وإلا من الذى أنزل هذه الكتب عن الرفوف؟ كارثة جديدة تضاف إلى الأمراض الأخرى، أو أننى كنت أقرأ فيها؟ مصيبة إذا كنت لا أدرك الحلم من الحقيقة، إن الدنيا توجه لى لطماتها واحدة إثر أخرى، ولا أستطيع أن أرد لها لطمة واحدة. أصبحت ضعيفاً منكمشاً أشك فى مقدرتى وقوتى، كان العالم دوماً أقوى منى،

تملقته، وعشت بخلق حسن، أسير قرب الحائط وأطلب من الله الستر وأن يُبعد الناس عنى، ومع ذلك فإن الآخرين لا يتركونى فى حالى، داخلى يغلى، وظاهرى الطيبة والرحمة، وما طيبتى إلا غشاءً رقيقاً يغلف عنفاً مكتوماً وشراً مستطيراً، كم تمنيت أن تكون لدى القوة لسحق كل ما لايعجبنى، كل من يقف فى طريق الخير ويسعى إلى الشر، ولأن معظم الناس فاسدون، فقد استشرى الشر بينهم، وما رغبتى فى امتلاك القوة إلا لقهر هذا الشر. كم تمنيت أن تكون الشقة مسكونة بالفعل، على أمل أن يظهر ذلك الساكن ليمنحنى القوة التى أصلح بها ما أريد إصلاحه، إن بذرة الشر متأصلة فى نفوس الناس تغذيها بذرة الجهل الإرادى الذى لا يريد أن يتعلم أو يترك الآخرين يتعلمون. جهل مركب. وما أريد إلا محاربة هذا الجهل الإرادى على الأقل فى المحيط الذى حولى، ذلك الجهل الذى يجعلنى وأمثالى نعيش على أعصابنا يؤذينا الجهلة من حيث يعلمون ولا يعلمون، لكنى أقف عاجزاً فى وجه التيار الجارف من الجهل والسلوك الهمجى والتفاهة والتبجح، وفكرت فى أن الحل هو أن يغادر المرء هذا

العالم، أو أن يتحمله ويتكيف معه ويتعود عليه بكل عيوبه ويصبر على الآلام النفسية التى يسببها كل ذلك، أو أن يواجهه وليكن الدمار آنذاك. وقد حرت ولذا لجأت إليك. فمغادرة هذا العالم لا أستطيعها لإيمانى الشديد، والتكيف لا أستطيعه لأن جهازى العصبى خارج فى تصرفاته عن سيطرتى وإرادتى، ويظل الألم النفسى يفرينى ويعذبنى حتى لا أستطيع النوم أو الراحة، أما المواجهة فأنا أعجز عن أن أقوم بها، لقد حاولت مرات تعد على أصابع اليد الواحدة، لكنها فشلت كلها إلا مرة واحدة ربما الظروف ساعدتنى أو المصادفة وحدها. وهى تلك المرة التى حاولت، كما تقول أنت، أن أسكن مع أحد، ذهبت إلى سمسار منذ سنوات طويلة ليبحث لى عن شقة مفروشة أول وصولى إلى البلد، كانت غالية فعلاً، ضحيت بنصف مرتبى لأرتاح من وجع الدماغ، وجاءنى السمسار بعد أسبوع ليسألنى هل أمانع أن يشاركنى أحد المسكن، وبذلك تقسم الأجرة على اثنين ويخف الحمل. لا أدرى حتى الآن لماذا وافقت، وجاء الساكن الآخر بحقيبته وبرفقته اثنان من أصحابه، تعارفنا وقدمت لهم الشاى

وسهرنا نتحدث فى أى كلام فارغ، وأنا أتساءل بينى وبين نفسى متى يغادر الضيفان ويركن كل منا إلى غرفته، استأذنت وذهبت إلى غرفتى، وتظاهرت بالنوم، لكنى ظللت أتقلب فى السرير حتى بعد أن اطفأوا النور، لكن همسهم ظل متواصلاً حتى الفجر وأنا أغلى من الغيظ، ربما نمت ساعة ونصف أو ساعتين على أكثر تقدير، وقمت وذهبت إلى عملى وهم نيام. حين عدت بعد الظهر، وجدت الثلاثة فى الشقة. جهزوا الغداء مكرونة وبطاطس مقلية، أكلت معهم واستأذنت لإنى أنام بعد الظهر، واستلقيت على السرير فى محاولة لتعويض ما فاتنى من نوم فى الليلة الماضية، إلا أننى لم استطع، فتحت الراديو الصغير الذى أضعه بجانبى على المخدة حتى يغطى صوته على أصواتهم، لم أفلح فى النوم وإن تظاهرت به، فوجئت بأحدهم يدخل الغرفة ويقول: إنه نائم والراديو مفتوح، فصاح الآخر: لقد نسيه مفتوحا. اقفله. وامتدت يده لتقفل المذياع وكان الغيظ يتصاعد داخلى حتى تهيأ لى أنى سأنفجر.

وتكرر ذلك فى اليوم الثانى والثالث حتى لم يبق بداخلى طاقة للتحمل.

فواجهتهم وسألت: من منكم الذى يسكن معى؟

قال أحدهم وهو الذى جاء به السمسار: كلنا.

قلت: أنا وافقت على واحد لا على ثلاثة..

فقال: إذا كان عاجبك ثم أردف: ندفع لك فرق الأجرة بعد خصم الأكل الذى تناولته وتمشى من هنا.

تمالكت نفسى وقلت: سأدفع لكم ما دفعتوه .. وتفضلوا مع السلامة.

خرجت من الشقة مندفعا إلى قسم الشرطة. حكيت للضابط الأمر كله. وقلت بعصبية:

- المفروض ان تمنع الشرطة الجريمة قبل ان تقع .. إذا لم يخرجوا من الشقة سأرتكب جريمة.

وكنت فكرت بالفعل ان اضربهم بقنبلة مولوتوف لو لم تحل الشرطة الاشكال.

نادى الضابط على صول وقال له: اذهب معه واحضر الثلاثة الموجودين فى الشقة.

سرت بجانب الصول صامتا، سألنى عن الحكاية فحكيتها له، طمأننى بلهجة ذات مغزى، فأخرجت مبلغا أعطيته له، دسه فى جيبه متمتما بعبارات الشكر.

فوجئ الثلاثة بالصول، قال أحدهم: ظننتك ستذهب إلى السمسار وانسل خارجا من باب الشقة قبل ان ينبس أحدهما بكلمة.

سرت مع الصول والاثنين الآخرين، فى منتصف الطريق، قال أحدهما:

ـ أنا لا دخل لى بالأمر. هذا هو المستأجر. عن اذنكم.

واستدار وأسرع فى خطوة مبتعدا، كان الصول يريد أن يمسكه، فغمزت له أن يتركه. حين اقتربنا من القسم، قال الأخير: لا داعى للقسم.. سآخذ حقيبتى وأرحل مع الفجر.. ذهبت إلى الضابط، وأخبرته اننا اصطلحنا ووافقوا على مغادرة الشقة.

حين عدت، وجدته قد أعد حقيبته، وعند الفجر غادر بعد أن أعطيته باقى نقوده.

هذه هى المرة الوحيدة التى شعرت فيها بالنشوة وبأننى حققت نصراً صغيراً، لكن فى المرات التالية التى واجهت فيها مشاكل مشابهة فشلت فى تحقيق أى نصر مهما كان ضئيلاً. أبلغ الشرطة أحياناً، لكن الآخرين يدفعون الرشاوى ويعودون إلى ما هم عليه ولا أستطيع عمل شىء لهم. قوة القانون لا قيمة لها هنا أمام قوة النقود وقوة العلاقات. وأنا أدرك ذلك وأنكمش وأزداد عزلة وبعداً عن الناس، لكنهم لا يتركوننى فى حالى أبداً، فكيف تريدنى وأنا الذى أبتعد عنهم أن آتى بهم بنفسى ليقيموا معى!.

هز الطبيب رأسه وسأل: والجنس؟ أمازلت تسعى وراء النساء.. أم توقفت؟

قلت: اقترب منهن بدرجة احتياجى لهن. ولا أحب أن يتطفلن

عليّ بعد ذلك.. لكن إذا عرفت واحدة فمن الصعب التخلص منها.. تعود إليك مرات ومرات حتى تغلظ فى القول إليها.. والأدهى المصائب التي ترتمى عليك..

قال: وضِّح لى ..كيف؟

قلت: كنت ذات يوم أقرأ فى رواية مسترخياً ومندمجاً.. حين توالى على الباب دق متلهوج سريع أخرجنى من حالتى، اندفعت نحو الباب بسرعة، فتحت الشراعة كعادتى، فالحذر أصبح من الصفات الملازمة لى، كانت تقف بالباب بهيئتها "المبعجرة" وشكلها الشائه، امرأة تسكن فى الدور العلوى، غبية وطفيلية، استعذت بالله فى سرى، وفكرت إنها جاءت لتستعير شيئاً كعادتها، رأس ثوم أو بصل أو قليلا من الملح أو ورقة جورنال أو المقص أو السكين، لكنها وقفت أمامى فى الناحية الأخرى من الباب صامتة. أعرف إنها تتلصص علىّ، وتتجسس على كل من يخرج ويدخل، ولا أعيرها انتباها كبيراً، وأقول امرأة فضولية معقدة وغلبانة فى النهاية.

قلت: أتحتاجين شيئاً؟

قالت وهي تسبل عينيها: كلمتين أريد أن أقولهما لك.

قلت: قولي وخلصيني.

قالت: في الداخل.

قلت: الوقت غير مناسب.. وهناك زوار قد يأتون في أية لحظة..

قالت برجاء: دقيقتين فقط.. الأمر مهم.

حاولت أن أصرفها بكل وسيلة، وأنا أخاف أن يرانا أحد ونحن نتهامس على الباب، أصابني التوتر، ولأنها وحيدة ومنبوذة ولحوحة ولا أحد يعطف عليها، فتحت لها الباب إشفاقاً، وأدخلتها، دلفت ببطء وهي تنظر حولها. أشرت لها إلى غرفة الجلوس، تقدمت وجلست على حافة سرير الضيوف السفري الموجود بالحجرة. جلست على كنبة أمامها وقلت بنفاذ صبر: نعم؟

:لعت غطاء الرأس. والجرز الذي تلبسه فوق الفستان

ووضعتها على كتبة بجوارى، تنهدت وقالت: ألا تعرف أنى أحبك.

ابتسمت، ثم قهقهت، قالت: أنت تضحك .. لا تصدقنى..

توقفت عن الضحك وتطلعت إليها دهشاً، قالت: حاولت أن ألفت نظرك كثيراً لكن الإنسان لا يرى من أمامه دائماً..

قلت: هل تكرارك الدق على الباب وطلب أشياء ما.. كان لهذا السبب..

قالت بحماس: طبعاً.. أحياناً لا أكون فى احتياج لشىء.. فقط لرؤيتك فأدق عليك..

قلت فى نفسى: ألا تنظرين فى المرآة؟ أنت عمياء أيضا بالإضافة إلى حماقتك.

قامت واتجهت نحوى، وقفت أصدها، احتضنتنى قائلة: حضن واحد بس.. وقبل أن أستطيع فعل شىء بدأت تقبلنى فى أماكن عدة من الصدر والرقبة والكتفين وأنا اشيح بوجهى بعيداً محاولاً أن أبعدها عني، كانت قوية وتنهدت بغيظ منتظراً انتهاء

هذه التمثيلية السخيفة.

قلت وأنا أدفعها: أنت تعرفين إنه ليس لى فى مثل هذه الأمور.. ابتعدى عنى..

قالت ساخرة: والطالعات والنازلات.. ولاً عشان مش داهنة وشى أحمر ومسلوعة.. وهى تزداد التصاقاً بى ويدها تعبث بين فخذى. شعرت بالغثيان والاشمئزاز وفكرت فى ضربها، لكن لو ضربتها وبدأت تصرخ من يصدقنى لو قلت الحقيقة؟

قوية كبغل، هائجة كثور، ألقت بى على السرير، لا أعرف كيف هبط علىّ الهدوء فجأة، التليفزيون مفتوح يبث نشرة أخبار السادسة، ركزت أفكارى مع الأخبار واستلقيت بهدوء حتى أرى إلام ينتهى الأمر. وقلت: إن الله يعاقبنى بطريقته الخاصة. سحبت البيجامة لتعرى نصفى الأسفل، وانهالت بفمها علىّ، ولم تخيب الطبيعة ظنها. نهضت، رفعت فستانها، لم تكن ترتدى شيئا تحته، وقعدت فوقى، تهز جسدها وتتأوه. قالت: ألا تتكلم؟ قلت: ماذا أقول؟ قالت: ماذا تفعل أنت الآن؟

قلت: لا أعرف. قالت: أين عريك الآن؟ قلت: لا أعرف. قالت: تكلم.. شجعنى بالكلام، قلت فى نفسى وثقلها يضغط علىّ: أيرضيك هذا يا ربى!

وابتسمت غيظا، وهى ترتفع وتهبط، تتأوه وتتشنج وتدعك صدرى، ثم تمسك يدى لتضعها على صدرها وجذعها، وتصاعد قرفى حتى كدت أرتكب جريمة، هل أدفعها لتقع وتموت، تخيلتها ميتة فى شقتى، ما الذى سيحدث؟ وكيف أفسر الأمر؟

تذكرت رواية "حذار من الشفقة"، لو لم أفتح لها الباب وأدخلها، لما كان ما يحدث الآن، استسلمت لقدرى، وأغمضت عينى وحاولت أن أركز فى العملية حتى انتهى، لكن عبثاً فقد بلغ قرفى مداه، وهى تتأوه وتتلفظ بكلمات كان وقعها كالحجارة علىّ. وكررت فى نفسى: أيرضيك هذا يا رب! يوسف رأى برهان ربه، لست بنبى لكنى انتظر برهان ربى ليخلصنى من هذه المصيبة التى حطت علىّ.

وفجأة علا آذان العشاء من التليفزيون. انتفضت قائماً بقوة قائلاً:

ـ الآذان .. حرام عليك..

وقفت مذهولة لا نتفاضتى، جريت إلى الحمام، لحقتنى قائلة: لم تنته بعد..

قلت: هذا يكفى.. ليس لدى رغبة.. ألا تقولين بأنك تحبيننى.. لابد أن تراعى مشاعرى.. تنهدت باستسلام، لبست جرزها وحذاءها ووضعت الإيشارب على رأسها.

قالت: فى وقت آخر.. وعد.

قلت: وعد. وأنا مصمم ألا أفتح لها الباب أبداً.

خرجت. أقفلت الباب وراءها بعنف، خلعت كل ملابسى ووضعتها فى الغسالة وغيرت ملاءة السرير ودخلت الحمام وظللت أفرك جسدى بالليفة والصابونة فترة.. وحتى بعد ذلك مازلت أشعر بالقرف. واستمرت فى مضايقتنى بالدق على الباب كلما نزلت أو صعدت السلالم، ولم أسمح لها بدخول الشقة ثانية.. ألا ترى فى هذه مصيبة من المصائب؟

قال الطبيب: من السهل التخلص من هذه المشكلة.. لا ترقى إلي درجة المصيبة..

قلت: تقول ذلك لأنك لا تعيش فى شقتى. فهى ليست المصيبة الوحيدة. أنا لا أخلص ممن يدققن على الباب فى كل ساعات النهار والليل.. شىء يبعث على الجنون يا دكتور خاصة إذا أردت أن تعيش مستقيماً مع الله.. ماذا أفعل؟ هل أصرخ فيهن وأتسبب كل يوم بفضيحة.. خذ مثلاً تلك الأخرى التى تسكن العمارة أيضا لا أنكر إنها جميلة، وأنى تمنيتها، لها ابتسامة ساحرة ووجه برىء وطيبة بلا حدود. لو قابلتنى على السلم صاعداً أو هابطاً تلقى علىّ التحية، فانظر إليها بلهفة وأتمنى لو توقفت لأتحدث عنها. مرة كنت أفتح الباب بعد عودتى من الخارج، وكانت تصعد السلم، دعوتها للدخول وأنا أتوقع أن توافق، لها غمازتان جميلتان حين تبتسم.

ابتسمت وقالت: زوجي قد يعود. قلت والأمل يعلو فى قلبى: مازال الوقت مبكراً..

قالت: فرصة ثانية. قلت فى نفسى: معنى ذلك آن امكانية زيارتها ودخولها الشقة واردة.

وصرت أترقبها وأتحين الفرصة لأفتح الباب وأنا انظر من العين السحرية وكأن الأمر مصادفة. كانت تتوقف وتتجاذب الحديث، ودعوتها ثانية، فدخلت. أقفلت الباب وبدأت تنظر حولها، عما تبحث. عن الجن الذى يسكن الشقة؟ لكنها لم تكن خائفة، كانت تحمل فى يدها كيس بلاستيك يضم الخضروات التى اشترتها، تناولته منها ووضعته قرب الباب وأمسكت بيدها، قالت وهى تبلع ريقها بصعوبة: الأولاد فى المدرسة. قدتها إلى غرفة النوم فسارت كالمنومة، كانت طيعة، لدنة، مريحة، تهمهم كلام، لم تقل شيئاً سوى "إلعب فى ثديى".

كل يومين أو ثلاثة، كانت تدخل متسائلة: هل عندك أحد؟ أحببت دماثتها وصرت انتظرها، واتساءل فى نفسى لماذا تخون؟ وأجبن عن سؤالها، ماذا تريد المرأة غير زوج وأطفال هادئة بعيدة عن مشاكل العمل وزحمة المواصلات! ربما جانباً عاطفيا لم يوفره لها شريكها، وربما تبحث عن حنان

لم تجده، تجرأت وسألتها يوما ، تنهدت وقالت: إنه يعود فى الثانية أو الثانية والنصف من عمله، يتغدى وينام، ثم ينزل ليجلس مع شلة من أصدقائه فى مقهى قريب، لعلك تعرفه، يتجمعون للعب الطاولة والدومينو حتى الساعات الأولى من الصباح وأحيانا حتى آذان الفجر إذ كان اليوم التالى إجازة. ويعود لينام كالقتيل، يستيقظ فى الثامنة، يذهب إلى عمله ويفطر هناك، وإذا عاد مبكراً يجلس على المقهى ليلعب دورين طاولة قبل أن يصعد للغداء والنوم ثم العودة لمواصلة اللعب. وفى يوم الجمعة، يوم الاجازة، لا يتغير شىء، سوى إنه يظل نائماً حتى موعد الصلاة، فيخرج لصلاة الجمعة ويظل على المقهى يلعب حتى انتصاف الليل، ويتغدى مع أصدقائه على المقهى. شلة أصدقاء مثله كلهم إما موظفون أو رجال أعمال صغار لا يعرف أحد بماذا يتاجرون. يسهرون حتى الفجر بعيدا عن بيوتهم، وزوجاتهم تجرأن بالشكوى دون أن يكون فى أيديهن شيئا. أعرف معظم الزوجات فنحن نلتقى يوما فى الأسبوع نتبادل الهموم.

سألتها: هل هناك مشاكل بينك وبينه؟

- أبداً. كما ترى أقوم بكل عمل البيت والعناية بالأولاد. نشيطه، حلوة، لكنه لا يرى. فى أول سنة زواج كانت معاملته حسنة، لم يكن يخرج من البيت، لكن بعد الطفل الأول تغير حاله. لا يمكث فى البيت إلاَّ للضرورة. النوم والأكل.

سألتها: والجنس؟

قالت: كل خمسة عشر يوم مرة.. ولم يعد أداؤه كما كان .. كأنه يفعل ذلك كواجب. كنت أشك فى البداية إنه يعرف واحدة أخرى.. لكن وجوده الدائم على المقهى نفى من ذهنى هذه الفكرة.

سألت: هل راقبتيه؟

قالت: ليس أنا .. بل شاب يجلس على المقهى تقيم معه إحدى الزوجات علاقة.. يبلغها بكل شىء حتى الحديث الذى يدور بينهم على المقهى - كثيرات لهن علاقات مع شباب فى الجيش أو من طلبة الجامعة ..

ابتسمت وقلت لها: يعنى وكأنك تقولين إن معظم الأزواج مصابون بالضعف الجنسى!

قالت: لا. الأمر ليس كذلك.. يبدو أن العشرة والألفة تقلل الرغبة.. لكن هناك سبباً هاما آخر.. أنت تعرف أن سن الزواج قد ارتفع لظروف عديدة.. وفى تلك الفترة قبل أن تتزوج الفتاة تكون لها علاقات مختلفة، ونظرا لأن غشاء البكارة مهم جدا للفتاة، فإنها تسلم بمؤخرتها، وبعد الزواج لا تستطيع ان تطلب من زوجها أن يفعل بها من الخلف، فتبحث عمن يلبى لها حاجتها تلك.. هناك كثير من العلاقات من هذا النوع، ويعتبرون أن ذلك ليس خيانة.. وعموما الحق على الأزواج.. خذ أنت مثلا وأنت غير متزوج تلازم شقتك معظم الوقت على الرغم إنه لا يوجد من يقيد حريتك.

قلت: ربما لو تزوجت لاختلف الأمر. لكن فى النهاية لا أحب الجلوس على المقاهى ولا حتى جلاسّها.. ثم إن لى عالمى الخاص فى القراءة والكتابة.. ولقد اعتدت ذلك.

قالت : أتمنى أن يقضى زوجى يوما واحداً فى البيت .. أو يتصرف كما كنت أرى أبى يتصرف هل تعتبر ما أفعله خطأ؟

لم أرد أن أصدمها، ثم إذا كانت مخطئة فأنا لا أقل خطأ عنها، وسرحت أفكارى، وحمدت الله أنى لم أتزوج. إن المجتمع المتخلف يرى فى الأسرة والزواج مظهراً اجتماعياً لابد من الحفاظ عليه، وأن يكون هذا المظهر جيداً، ولا يهم المخبر. ذلك الموظف أو رجل الأعمال أو المتبختر مزهواً بوظيفته ممن يقضون وقتهم فى لعب الطاولة، لا يدرون أن الشباب الذين يُبدون لهم الاحترام ظاهراً، يسخرون منهم فى نفوسهم. أو ذلك الذى يتباهى بنقوده وأعماله لا يعرف أن صعاليك ممن لا يملكون ثمن علبة سجائر فى جيوبهم، يعتلون زوجته من الأمام والخلف، ويتغامزون عليه. وراودتنى أفكار مجنونة، لو ذهبت إلى المقهى وقضيت على كل من فيه، هل ينقص العالم شيئاً، قد يكون أجمل. المهم، إن نفسى المتقلبة ملّت منها بعد شهرين، كانت تدق على الباب فلا أسمح لها بالدخول وأرى فى عينيها نظرة حائرة متسائلة، طبعى سيء، أمل بسرعة وأبحث عن

أخـرى، لا أدرى لماذا هذا الملل السـريـع، وكـثـرة التنقل، وبدأت تشكل لى مـشكلة أحـاول التـخلص منها ولا أسـتطيـع. أسـتخـدم اللين فلا أريد فضائح.. لكن أتأزم نفسياً..

قال الطبيب: أيضـا.. هذه مشكلة سـهلة أعتقد أن باسـتطاعتك التغلب عليها.. إن خوفـها من الفضـيحـة أكثر من خوفك.. أنت تضـخم الأمـور أكـثـر مـن اللازم.. وخـيـالك يجـسـد لك المشـاكل ويعطيها مـعان مـختلفة.. وإلا مـا المشكلة فى أن يدق الباب وتقول للطارق مـع السـلامـة لا تدق مرة ثانيـة.. وحـين يكرر تعـيد عليـه الكلام نفسـه حـتى يمل.. كلنا تدق أبوابنا فـى اليوم عدة مرات.. ولا نصنـع من ذلك مشكلة..

قلت: أنا أكره الإلحـاح.. ثم هناك سبب عـصبى آخر.. فـهذا الدق يعنى شيئاً واحداً.. الجنس مع من لا ترغب.. أريد أن أكون فى حـالى.. لقد وصل بـى الأمر فى الأيام الأخـيرة إلى كـراهيـة كل شـىء وتمنى الموت.. أريد أن أكون زاهداً مـتـصـوفـاً أعـبـد الله وأتقرب إليـه وأبعد عن الدنيا ومطـالبها.. لكن هناك قوة تشـدنى إلى الناحية الأخرى.. ولم أعد استمتع بشىء..

قال بثقة: سينتهى كل شىء على خير بإذن الله.. استمر على الحبوب التى كتبتها لك.. حالتك اليوم جيدة.. وما يطمئننى أننا سنصل إلى نتيجة جيدة.. الكثيرون يمرون بما تمر به.. والاكتئاب عارض طارئ اعتقد إنه زال خلال هذه الفترة.. والجلسة القادمة سيكون لنا حديث طويل.. وأعتقد إنها ستكون الأخيرة.

وكانت الأخيرة بالفعل، وقعت العمارة فوق رأسه، هل كان لنصيحته دور فيما حدث له، وما بال الآخرين؟ ربما يستحقون ما حدث لهم، لو تأخرت قليلا عنده لكنت الآن فى عالم آخر، ربما كان ذلك أفضل، لكنى لماذا استعجل الموت، هو آت لا ريب وكل آت قريب مهما طال الزمن. مشوار طويل يهد الحيل، أصلى الفجر فى الحسين، ثم آخذ مواصلة إلى العجوزة .. حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

* * *

القسم الثانى

ـ ليس للعالم وجود حقيقى، وهذا الوجود الخارجى الذى نشعر به بحواسنا ونسيمه عالماً ليس سوى خيال .

«ابن عربى»

•

ـ موقعنا فى مكان ما، بين الوجود والعدم، أى ما بين وهمين .

«اميل سيوران»

•

ـ اصنع ما تريد، فالعالم قصة خيالية، أساسها التناقض.

«بليك»

•

التــردد، عــدم القــدرة على اتخــاذ قــرار، الحــيــرة والقلق المصاحبان لتلك الحـالة، حين لا تستطيع أن تدرك الصواب من الخطأ، الخيـر من الشـر، المصلحــة من المضــرة، حـين يراودك الشك بأن مــا تظنه صــواباً ليس كـذلك، وإن مــاركنت إليـه هو الخطأ بعينه، حين تتخبط بين اليمين والشمال، بين هنا وهناك، تُقدم أو تُحجم، تفعل أو لا تفعل، تغامر أو تثبت فى مكانك. حيث تقع بين براثن هذه الحالة، فأنت شبه ضـائع من حيث أردت أن تهتدى، يضل من قدمك الطريق، فتقع فى شراك التوهان.

حين تتأمل نفسك، وتسير أغوار ذاتك، تكتشف جوانب كنت تستـشـعرها من قـبل بشكل غير واضح، وتعجب مما يتواجد

داخلك، تراكم عبر الزمن، لم تشعر به إلا حين سقطت فى لجته، وطلبت العلاج النفسى، ليكشف الغطاء، فيزداد جزعك، ويبلغ اضطرابك مداه، وما أنت فى النهاية إلا الإنسان يطلب الستر فقط، يخاف من النقود إذا كثرت فى يده، ويخاف من الناس إن أبدوا اهتماماً به، ويخشى الحياة إذا صالحته يوماً. إنسان متشائم بطبعه، لايتوقع الخير من الناس، ولا يتأمل حتى أن يعاملون كما يعاملهم، إن ابتسم أحد فى وجهه توقع شراً، وإن عامله إنسان بلطف ورقة انكمشت أعضاؤه وتوقع أن يدفع ثمن ذلك من راحته وسكينته، إنسان يحب الآخرين ويعمل على إسعادهم ولايريد منهم مقابل ذلك شيئاً ولا حتى كلمة شكر، يريد فقط أن يتركوه فى حاله، فكل اقتراب منه غير محسوب يجعله كالقنفذ يبرز أشواكه متوقعاً شراً، هكذا علمته الحياة، وتجاربه هى نبراسه، لا يأخذبالكلام المعسول، إذا سارت الأمور تسير انتابه الشك، مع إنه يثق بالناس، وقد كلفته هذه الثقة الكثير من ماله وجهده وأعصابه، فكل تجربة أكثر مرارة من سابقتها، وكل حادثة تترك فيه أثراً أكبر من أختها.

لو ظل فى البـيت ، يقـرأ أو يـكتب سـيظل الموضـوع يشـغل ذهنه، ويسيطر على تفكيره، ما الذى يخسره لو حاول؟ لا يمكن أن يكون المكان قلعة الكبش، فهو مملوء بالسكان والقدم لاتنقطع منه حتى منتصف الليل، المنطقة التى ذهبت إليها كانت هادئة ساكنة كالقبور، اللغز يقع فى هذا الجبل على الرغم من المسافة التى تفصلة عن الهرم، من يدرى، فقد اختلطت الاتجاهات فى ذهنه، ووجوده فى شارع الهرم صباحا لا يعنى أن المنطقة التى قصدها تقع هناك، لكن لماذا لايصرف ذهنه عن الموضوع فيريح ويستريح، وما الذى يدفعه إلى البحث وقد انتهت المغمرة بما لها أو عليها؟ لكن أحقاً هى انتهت! هل تسـتحق فتاة مهما كانت أ يرهق نفسـه من أجلها؟ قال لنفسـه : أحـيانا توجـد من تستحق.

ركب سيارة أجرة، طلب من السائق أن يصعد المقطم، سأله: إلى أين ؟

قال: مطعم بحيرة التمساح ..

سمع الاسم بالمصادفة، ولم يكن يعرف أن هناك مطاعم على

جبل المقطم، أو حتى مطعما بذلك الاسم.. لم يصعد إلى هناك رغم إقامته فى القاهرة سنوات.

آخر نقطة معمورة فى المقطم، شوارع مرصوفة وبنايات جديدة، وصعود صعب قليلا، وهدوء شامل، لكن لاتشابه بين ما رآه ويراه.

قال السائق: ها هو المطعم..

سأله: أتستطيع السير قليلا إلى الأمام..؟

ـ الطريق غير مرصوفة ولا أستطيع أن أغامر.

نزل. سار إلى الهضبة التى ترتفع بسرعة. وجد نفسه فى ساحة يتلوى تقوده إلى درب كأنه مبلط، ترتفع على جانبيه صخور شاهقة يتلوى الطريق وسطها. كاد يرجع، فالمكان ليس هو المكان. لكنه فوجىء أمامه بشاب ملتح يهبط من الجبل، طرح عليه السلام وسأله:

ـ هل هناك أحد يسكن هناك؟

وأشار بيده إلى قمة الجبل..

قال الشاب: بالطبع.. ألست ذاهباً إلى الشيخ؟

قال : بلى إنى ذاهب.. لكن الطريق طويل..

قال الشاب: الطريق إلى «المعلى» صعب. لكنه رجل مبروك آخر ما تبقى من الصوفية الحقيقية..

قال بدهشة: صوفية!

ـ أو لم تكن تعلم بذلك! القمة التى أيمت عليها «الخانقاه» تقع فى أعلى منطقة من الجبل، فى السفح كانت «خانقاه بكتمر» التى زالت معالمها، أما هذه فقد أقيمت للمجاهدين مع النفس جهاداً كبيراً.. الشيخ لا ينزل ولا يصعد.. أكله وشربه يصله.. ولا يدرى أحد من أين..

سأل: وهل أجاب مسألتك؟

قال: بالطبع.. أعطانى وصفة قال إنها ستحل المشكلة.. وأنت لماذا تصعد إليه؟

قال ساخراً: لأسأله سؤالاً واحداً.. ما هو الشيء الأعظم من اللذة؟

ولم يدرك الشاب السخرية فى لهجته وقال: وماذا تستفيد إذا عرفت؟

ـ استريح.

قال الشاب وهو يواصل النزول: معك حق.

استوقفه قائلا: ألا يوجد آحد مع الشيخ.. ألا يوجد منازل هناك؟

ـ لا يوجد إلاَّ بعض الزوار.. ولا يوجد منازل عند الخانقاه.

سار متمهلاً، متردداً، هل يعود من حيث أتى؟ وماذا يفعل لو عاد؟ لقد وصل تقريباً، فليكمل المشوار وليصعد إلى الشيخ وإن بدأ يشك فى إنه واجد المكان الذى يريد. واصل الصعود، والمكان يزداد وحشة، والطريق يضيق فى إحدى الاستدارات كاد أن يصطدم بامرأة فى الأربعينيات، تفت فى عبها واستعاذت بالله، قال مازحاً: هل أنا شيطان حتى تستعيذين بالله منى؟

قالت بجدية: لا يا خويا. أنا خفت. اسم الله عليك.

قال: هل قضيت حاجتك؟

قالت: من زمان. جئت لأعطى الشيخ الحلاوة. ربنا يقضى لك حاجتك.

ومضت وواصل صعوده. اقترب من القمة. نظر حوله. كل القاهرة أمامه والجبل يقف شامخاً كأنه شاهد على الدنيا وما فيها، ليس هذا هو المكان الذى قصده، لكن هناك ما يشده للصعود. ما المانع أن يحكى ما مر به إلى الشيخ ويرى ردّ فعله؟ لا يهم إذا كان الرجل عاقلاً أوْ مجنوناً أوْ دجالاً أو مدعياً الحكمة..

إن أفضل وسيلة لتجديد الفكر ليس الخروج من الخيال البشرى كما يقول صاحب النمل بل بالإيغال فيه، وكأنى الجبل يقوم على لغز عيدان الكبريت الستة ومثلثاتها الستة متساوية الزوايا، فالآن ومن هذا الارتفاع تتضح الطرق الثلاث الصاعدة التى تشكل الهيكل الهرمى للجبل.

فتحة الكهف ممر معتم، راية بيضاء مرشوق حاملها فى شق

بين صخرتين، تمر تحتها إلى باحة واسعة، تنيرها أشعة الشمس الساقطة من فتحة كبيرة فى السقف، مفروشة بالسجادة والمراتب وعلى حائطين منها أرفف مكتظة بالكتب الموضوعة بشكل غير منتظم ، وهى آخر ما توقع أن يراه هنا.

فى صدر الباحة غرفة لابد أنها مقر الشيخ، اقترب منها، وعليها ستارة من قماش أسود، تنحنح، نادى هل من أحد هنا؟ ثم انسلت امرأة شابة من وراء الستارة واندفعت إلى فتحة الكهف عبر الباحة، مهرولة تهبط الجبل تابعها بنظره قبل أن يسمع صوتاً يدعوه للدخول.

غرفة من نوع الطباق الحبيس، لافتحات بها سوى الفتحة التى تعلو الستارة، مفروشة بحصير عليه مرتبة وعدة مخدات،ورجل يجلس فى ركن، لايتبين ملامحه جيداً، يلبس مرقعة من ثلاثة ألوان يغلب عليها الأزرق، وفوطة تغطى رأسه وتتدلى على جانبى اقترب منه، بدا صغيراً فى السن، كم تبلغ خبرته أو تجربته؟

قال الشيخ: اقترب واجلس.

جلس، لم يتطلع إلى وجه الشيخ، ولا تعرّف على ملامحه.

ـ ما مسألتك؟

هل يحكى له عن مغامرته الأخيرة ولغزها، أو يلهو معه قليلاً؟

قال:

ـ أنتـقل من امـرأة إلى أخـرى، لا يهـدأ لى بال، عـرفت العشرات منهن، ورغبتي أ أعرف المزيد. شهوتى جامحةوذنوبى تتراكم وضميرى يعذبنى وأنا لا أستطيع مسك نفسى.. آما من علاج؟

قال الشيخ بثقة: دائما هناك علاج.

صمت قليلاً وأضاف: أنت تبحث فى المرأة عن شىء لن تجده عندها.. وأنت نفسك لا تدرك بوعيك هذا الشىء..

تطلع الزائر إلى الشيخ بدهشة، إنه يردد ما قاله النفسى الذى مـات فى انهـيـار البناية التى تضم عـيـادته، تطلع إلى السقف، هل ينهار الجبل عليه وعلى هذا الشيخ! تمعن لأول مرة

فى ملامح الرجل، خُيِّل إليه أنه يعرفه، وبدأت ذاكرته عملها، قبل أن يتوصل إلى ما يريد، قال الشيخ: هناك فى الباحة رفوف كتب، أنظر فى الرف السفلى أقصى اليمين. هات منه كتاب الطبقات الكبرى للشعرانى.. ببلوجرافيا الصوفية الذين عرفهم أو سمع بهم أو قرأ عنهم..

ابتسم الزائر ونهض، بحث عن الكتاب، وجده بسهولة، عاد وناوله للشيخ. لم يمد الشيخ يده، بل قال: افتح ص ١٣٥من الجزء الثانى فيه واقرأ الفقرة التى تحتها علامة بالخط الأحمر عن سيدك الشيخ على زبو فودة. أقرأ بصوت عال.

قرأ «كان رض اللّه عنه إذا رأى أمرىء راوده عن نفسه وحسس على مقعدته سواء كان ابن أمير أو ابن وزير ولو كان بحضرة والده أو غيره.

ولايلتفت إلى الناس ولا عليه من أحد».

قال: ماذ تقصد بهذا يا سيدى؟

ـ هناك آخرون منهم.. كانوا يمارسون مع الحمير.. افتح ص ..

قاطعة: وما شأني أنا بهم؟

ـ ألم تفهم بعد!

ـ كلا لم أفهم.

ـ حين تجد نفسك الشيء الذي تبحث عنه. يستريح بالك وتخف حدة شهوتك.. فكل هؤلاء استراحت أنفسهم حين وجدوا الشيء الذي يبحثون عنه..

ـ تقصد..

ـ هذا ما أقصده.. وهذا هو حل مشكلتك..

الكلام نفسه الذي قاله الطبيب النفسي، قال: هكذا الأمر إذن..!

ـ هو كذلك.

فكّر، لو نزعت هذه اللحية الصغيرة كيف يكون شكله؟ يريد أن يسمعه أكثر، إنه شخص عرفه من قبل أو هكذا يخيل إليه، لكن متى وأين؟

وخطر بذهنه السؤال الذى ألقاه على الشاب الذى قابله أثناء صعوده الجبل.

سأل: هل هناك يا سيدى الشيخ.. ما هو أعظم من اللذة؟

رفع الشيخ رأسه تجاه السقف، جال بعينيه فى الغرفة، تنهد وقال:

ـ أجيبك بما قاله الحكماء قبلنا.. نعم.. الألم أعظم من اللذة لأنه يطردها..

قال: والأعظم من الألم؟

ابتسم الشيخ: الحب.. فهو يجعلنا نتقبل مشاركة الألم مع من نحب..

قال: إذن لاشىء أعظم من الحب فى رأيك؟

قال الشيخ بجدية: لا شىء أعظم من الحب.. بالفعل.

قال مازحاً منهياً هذا الموضوع المحبط: وما هو اللاشىء..؟

استمر الشيخ يقول على وتيرته: الحياة.. الحياة لاشىء؟

قال: ولذا نهجرها ونبتعد عنها..

قال الشيخ بحسرة: ليتنى أستطيع هجرها.. على الرغم من كل ما فعلته فمازال حبها يناوش قلبى.. لا أخفى عليك. أجدها نفسى جهاداً عنيفاً.. لكن المصيبة إذا سنحت فرصة أمامى أجدها انتهزها.. لا أستطيع أن أبعد عنى أخلاق السوء داخلى.. لكنى أحاول.. أرأيت الشابة التى كادت تصطدم بك عند خروجها..

ساد صمت كثيف قبل أن أقول: مالها؟

ـ كانت جارتنا فى الحى.. أوقعتنى فى شراكها.. بالطبع لا أعفى نفسى من المسؤولية.. كنت أفرغ توترى بها قبل أن تتزوج.. والآن وبعد أن تزوجت.. كلما ضاقت بها السبل زارتنى هنا.. وفى كل مرة أقول إنى لن أقربها.. لكن نفسى تضعف إذا رأيتها.

قلت مواسياً: الشيطان لايترك الإنسان الصالح أبداً..

وأنا أعجب لما يقول لى هذا الكلام.

قـال بسـرعـة: ليس الشـيطان ... بل هـى النفس الأمـارة بالسـوء.. أتعـرف قـبل أن تصل المرأة التى رأيتـهـا خـارجـة من عندى زارتنى امرأة تخطت الأربعين.. كانت تريد أن تتزوج لكن ابنها الكبير البالغ من العمر سبعة عشرة عاماً يقف فى طريق زواجـها ويهدد بالانتحار لو فعلت.. كانت تريد حـجاباً أو عـملاً يجـعل الولد يلين أو على الأقل لايقـدم على أمـر يحـزنهـا .. خطر بذهنى أو أراودها عن نفسـهـا .. فـهى جـمـيلة.. ومنعت نـفسى بجهد جهيد..

قال الزائر: وهل تعمل الأحجبة؟

أجـاب بسـرعـة: لا.لا. إطلاقًا .. قلت لها هل أنت مسـتـعـدة للتضحية بالمال.

قالت: كل ما تطلبه يا سيدنا، قلت: لا أسلب شيئاً لنفسى.. هذا الزواج الجـديد أن يدفع مـهـراً لك؟ زوّجى ولدك بهـذا المهر وينتهى الأمر.

واليوم جاء تنى بهدية فقد زوجت ولدها فوافق على زواجها..

عجيبة هى النفس البشرية.. والأعجب ما يصنعه الجنس بها..

شعر بأنه أخذ من وقت الشيخ الكثير، ودهش أن يفتح الرجل قلبه إليه بهذه السهولة، هم بالنهوض، فأمسك الآخر بيده قائلاً: ألم تعرفنى بعد؟

أعاد التحديق فيه، والتقت منها العيون، وفجأة برقت صورة الآخر فى ذهنه، فصاح: أنت. قال الرجل: أنا هو نفسه. ذلك القواد الذى قادك إلى ما تشتهيه.

كم هو صغير هذا العالم، مصادفة لا تحدث إلا بنسبة نادرة.

قلت: لا أعتقد أنى جئت إليك.. بل هناك من دفعنى للمجىء..

- من ؟

- أنت .

قال: بل تلك الفتاة التى التقيتها .. هل تتشوق إليها وتتمنى رؤيتها..

قلت: ذلك منتهى أملى .

سأل: وهل تتشوق إليها جادا؟

قلت متردداً: بالطبع.. إذا شهد المرء البداية وشهد النهاية.. فقد يدرك سر الحياة..

ـ وأنت تعتقد إنك شهدت البداية والنهاية..

ـ أرى ذلك.

ـ وهل أدركت طريق الخلاص؟

ـ لا أدرى..

ـ مازلت طرى النفس.. وهذا ما يعجبنى فيك..

وأضاف: سأحضر لك كوباً من العصير.. ثم نتكلم..

دفع باباً فى الحائط لم يكن بادياً للعين، فهو من لون الجدار. وعاد بكأس عصير وضعه أمامي، قال: ألا تنظر إليّ؟

رفع رأسه، فوجده هو ذلك الفتى ذا الخمسة عشر ربيعاً .. الذى عرفه منذ نيف وعشرين سنة .. وكأنه لم يشب عن الطوق بعد، وقد قضا عنه ثيابه ووقف أمامه تمثالا من الجمال. وقف

يبغى الهرب، لكن الأرض دارت به، فأمسك به، ووقعا على الأرض معا.

* * *

كانت أشعة الشمس الغاربة تهدهدنى، وأنا أجلس على محطة باص فى شارع صلاح سالم، الحكاية نفسها وقد تكررت كما حدث فى شارع الهرم. نظرت إلى جبل المقطم، لا يبدو شيئاً مما تخيلته، لابد أنى على حافة الجنون، أوقفت سيارة أجرة وركبت، قلت للسائق: اصعد إلى مطعم بحيرة التمساح..

صعد، وأفكارى تتضارب متلاطمة. حين توقفت السيارة، قلت للسائق:

- أهذه آخر حدود العمران..؟

قال: هى كذلك. قلت: ألا يوجد مطلع يؤدى إلى قمة جبل فى هذه الناحية.

قال بثقة؛ لا يوجد. قلت: ألم تسمع بخانقاه موجودة هنا؟

قال: أنا أسكن هنا ولا أعرف عما تتحدث، لكن الخانكة فى العباسية.

قلت: عـد بى إلى وسط المدينة. وتأكـدت إنه لا توجـد أى خانقاه فى جبل المقطم.

قال وقد نزل عن سريره منتفضا يشعل الأضواء:

ـ لا يمكن، أنا لا أتخيل، هناك شخص ما فى هذه الغرفة.

ينظر فى كل ركن، مع أن المكان كله واضح أمامه، خرج إلى الصالة، جلس على كرسى ووضع رأسه بين يديه مطرقاً مفكراً، لقد زاد الأمر عن حدّه، كان الطبيب النفسى على حق، لابد أن يغير سكنه وإلاَّ أصابه الجنون، لكن كيف؟ أيرجع ليسكن فى فندق! أيها الإله القدير ألا ترزقنى بما ييسر لى تغيير حياتى؟ إنى أخاف هذه الشقة ولا أستطيع تغييرها، والحيرة تتلبسنى، والخوف يتلاعب بى، والعجز يقيدنى، والهواجس تنتابنى، فاجعل لى من أمرى هذا مخرجاً.

أشعل سيجارة، وذهب إلى المطبخ لإعداد كوب من الشاى، عاد إلى رفوف مكتبته، هناك الكثير الذى كتب عن الظواهر غير الطبيعية، عن أشياء تحدث ولا يعرف الإنسان لها تفسيراً، لديه

عدة كتب حول الموضوع، وغدا يذهب إلى مكتبة الجامعة الأمريكية ليبحث عن كتب أخرى.

قلب رفوف مكتبته، يتناول كل كتاب يهمه فى هذا الأمر ويضعه على المكتب: كتاب المعرفة السيكولوجية لهربرت هاوس، كتاب البحث عن القوى النفسية لديفيد هاموند، كتاب البحث عن الظواهر الغريبة لألان لاندسبرج، ثم كتب إريك فون دانيكن الأربعة: عربات الآلهة، بحثا عن آلهة قديمة، ذهب الالهة، معجزات الآلهة، وكتب راجى عنايت بالعربية، ثم كتب كولن ويلسون: الأرواح الشريرة، القوى الخفية، طقوس سحرية.

تنهد بارتياح، وجلس يشرب الشاى، يدخن ويقرأ.

أوراقه أمامه، يدون عليها ملاحظاته، وأوراق سبق أن دون عليها بعض الأشياء، ألقى نظرة سريعة عليها:

- "أيها الداخلون: اطرحوا عنكم كل أمل" جحيم دانتى.

- "لا يوجد إنسان لم يتمنى، لا شعورياً على الأقل، موت إنسان آخر، كل واحد يجر وراءه مقبرة أصدقاء وأعداء" سيوران.

- "وهذا الوحش الذى يبكيك، لا يدع إنساناً يمر فى طريقه، بل يعوقه حتى يقتله، وله طبيعة شريرة ملتوية، حتى إن شهوته الجامحة لا تشبع أبداً، ويصبح بعد الطعام أجوع من ذى قبل"..

جحيم دانتى/النشيد الأول.

- "حين يشبّ الإنسان عن طوق السلطة الدينية فإنه يصبح فى العادة ضحية لتفاهاته الخاصة" كولن ولسن.

- "ما فارق الخوف قلباً إلا خرب" حكمة عربية.

- اللغة الدينية كلها، يسودها من أولها إلى آخرها الطابع الرمزى، ولابد أن تؤخذ بالمعنى الرمزى لا الحرفى. والواقع إنه بمجرد أن تحاول أن تأخذ المذهب الدينى بمعناه الحرفى، فسرعان ما تجد نفسك بإزاء الكثير من المتناقضات:

كالتناقض القائم بين خيرية الله ووجود الشر فى العالم.

أو التناقض القائم بين ثبات الله (أو عدم قابليته للتغير) وفاعليته.

والتناقض القائم بين شخصية الله و ..

وشعر برجفة، هذه المناطق لا يجب أن يخوض فيها، لم يكمل القراءة، أمسك بالقلم وشطب تلك الفقرة، وتخطى الورقة والتى تليها. كان آخر ما كتب آية قرآنية في سورة البقرة (١٠٢) "وَاتَّبَعُوا ما تتلُوا الشياطينُ على مُلْكِ سُليمانَ، ومَا كَفَرَ سُليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفروا. يُعَلِّمونَ الناسَ السِّحرَ وما أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَينِ بِبَابِلَ هَاروتَ وماروتَ وما يُعَلِّمَانِ مِنْ أحدٍ حَتَّى يَقُولاَ إنمَّا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ، فَيتَعَلَّمونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ به بين المَرءِ وزَوْجِهِ. ومَا هُم بضارِّينَ به مِنْ أحدٍ إلاَّ بإذنِ اللهِ. ويتعلَّمُون ما يُضرُّهم ولا يَنْفَعهُم ولقد عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ في الآخِرةِ مِنْ خَلاَقٍ ولَبِئْسَ ما شَرَوْا به أَنْفُسَهُم لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ".

تنهد. عالم غريب، أمور مذهلة تحدث، فإلى أى مدى يستطيع الإنسان أن يصل ليحقق ما يصبو إليه، إلى درجة أن يضحى بنفسه فى سبيل المعرفة أو القوة.. الساعة تقترب من الثانية عشرة، منتصف الليل، وغداً لديه موعد فى الصباح، لابد أن ينام. حمل الكتب ليضعها على الرف بجانب بعضها ليرجع إليها متى أراد، فوجد كتاباً نافراً عن الرف بشكل ملحوظ، متأكد إنه

لم يكن كذلك حين أنزل الكتب، مد يده ليدفعه إلى مكانه، لكنه سحبه فجأة، فاوست لجيته من ترجمة عبد الرحمن بدوى. ثلاثة أجزاء كان قد قرأها منذ زمن. سيعيد قراءة جزء من المسرحية وينام فى الثانية عشرة والنصف.

الساعة تدق الثانية عشرة. همس لنفسه: ساعة خروج الشياطين، يالها من قراءة. خُيِّل إليه أن صوتاً هامساً يناديه، ارتعش قلبه، وأرهف السمع. فعاد الهمس، ولم يفهم شيئاً.

قال بصوت واجف: منستوفليس؟

وجاء الهمس: لا.

تصلب فى مكانه وهمس بصوت مبحوح: بعلزبول

ـ لا.

قال: لوسيفير.. الحارث.. الحكم.. أبا مرة..

ـ لا.

قال: عزازيل، الشيطان، أبليس، ديفيل ..

ـ لا. لا. لا.

قال وقد نهض من مكانه، وهو عازم على فتح باب الشقة والنزول إلى الشارع:

ـ من أنت إذن يا صاحب الصوت؟

وجاءه الصوت واضحاً لا لبس فيه: ليليت..

قال بخوف: جنية..؟

قال الصوت: لا. ألم تسمع بى؟ إنسية كنت زوجة لآدم قبل حواء، ولأنى أردت أن أضع رأسى برأسه، طردنى ورمانى، وطلب من الله أن يصنع له زوجة أخرى.. فأخذنى ابليس وضمنى تحت جناحه وحلّت علىّ بركته فى الخلود.

قال بدهشة ووجل: زوجة إبليس؟!

قال الصوت برقة: ليس بالضبط.. أنا ليليت بعينها.. الغاضبة الناقمة المسيطرة.. ربة الخيانة وأم جميع الأرواح الشريرة.. لكنى فى أعماقى طيبة.. قال وقد عاد للجلوس: أين أنت .. أنا لا أراك..؟

- ألا تخاف إذا ظهرت لك؟

فكّر قليلاً، وقرر أن يتمادى، لا يعرف من أين واتته هذه الشجاعة، شعر بجسده يمتلئ بالقوة.

قال: إظهرى بشكل محبب.. ألا تستطيعين التشكل كما تشائين؟

قالت: أستطيع.. هل أظهر لك فى صورة فتاة الهرم أم فتى المقطم..؟

ذهل. قال: أهو أنت؟

ظهرت أمامه فجأة، الفتاة التى بحث عنها حتى كلت قدماه.

قالت: أنا بعينها. تعبت وأنا أراقبك.. انتظرت حتى استدعيتنى..

- لكن لم أستدعك؟

- بل استدعيتنى وكل الشواهد تدل على ذلك. إن لم يكن بوعيك فبلا وعيك.. أنت حائر بائر.. وتريد أن ترسى على بر

الأمان.. ومن غَيْرى يستطيع لك ذلك..

قال باستهجان: شيطانة! لكنى مؤمن بالله.

ـ ومن قال لك إن الشياطين غير مؤمنة؟ إنها تعرف أن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له كفوا أحد من قبل أن يُخلق أبوكم آدم.

ـ لكنى أعرف أن الشيطان غير متزوج.. وإنه يتناسل بنكح نفسه..

ـ من أين أتيت بهذه الخرافة؟

ـ قرأتها فى كتاب..

ـ معظم كتبكم نوع من الهراء.. وَهْم .. تعيشون وتتغذون بالأوهام..

ـ أتقصدين أن كل الشياطين من نسلكما؟

ـ أنا لم أقل ذلك. أنا شبه زوجة.. فهو لم يلمسنى قط.

ـ كيف إذن؟

ـ إنه يتناسخ. كل الشياطين من سلالته بالتناسخ.

ـ أنا أعرف أن التناسخ لا يتم إلاً بالأنثى؟

ـ عيبك إنك تريد أن تطبق ما يجرى فى عالمكم على ما يجرى فى عالمنا.. أنسيت إنه عالم مختلف..

ـ فهمت.. لكن ماذا تريدين منى؟ لماذا تلاحقينى؟ لماذا لا تتركينى أعيش فى سلام؟

قالت: أولاً أنا لا ألاحقك.. أنت الذى سعيت وسكنت فى البيت الذى أقطنه.. ثم ثانياً هل تعيش فى سلام حقاً؟ أنت أغلب من الغلب.. وقد اشفقت عليك..

قال: هناك الملايين مثلى.. فلماذا أنا؟

ـ حظك إنك سكنت هذا البيت.. فعرفتك واحببتك .. وأردت أن أخفف عنك.. هل اخطأت فى ذلك؟

قال: إذن أنت التى تزاحميننى فى السرير ليلاً.. وتقلبين حال الشقة بين حين وآخر؟

قــالت : فى البــداية.. أردت أن أطفــشك.. ثم أردت لفت نظرك.. فـبـدأت أخـفف من ثورتى عليك.. وأنت لست هنا.. بل سـعـيت إلى طبـيب نفـسى.. يشـرح لك هلوسـاتك ويحـاول أن يشفيك منها.. ثم عطفت عليك ورغبت فى مساعدتك.. فهيأت لك ذلك القواد، وكنت أنا بذاتها، وقدتك إلى مكان أنا صنعته، أتذكر تلك الليلة.. كنت على اسـتعداد للقيام بما قمت بـه.. لا تقل إنى أغويتك ..

ـ لكن لماذا لم تبـحـثى عن مكان آخـر تسكنينه وأنت فـى استطاعتك بناء الفيلات والعمارات!

ـ أردت أن أسكن وسط البـشـر.. أكـون قـريبـة وبـعـيـدة فى الوقت نفسه.. أراقبهم وأوسوس إليهم..

ـ لن تستطيعى الوسوسة لى.. فكما قلت لك أنا رجل مؤمن.. ولن يزحزنى عن إيمانـى أحد.. لا أنت ولا زوجك المزعوم ولا كل شياطين الأرض..

ضحكت : هذا ما قاله لى إبليس أيضاً..

قال: ما الحكاية.. هل تراهنتما عليّ؟

قـالت: ليس رهاناً بالمعنى المفـهوم.. أنا غـاضبـة منه.. وهو يساعد أعداءك.. فأردت أن أساعدك.

ـ وهل تساعد الشياطين الإنسان دون ثمن..؟

ـ لا بالطبع.. لكنى أساعدك لأغيظه..

ـ وأقع أنا بين شقى الرحى..

ـ لاتخف.. سأحميك..

ـ أنت تقولين إنه يساعد أعدائى.. فكيف سيتصرف لو تغيرت أحوالى لو ساعدتينى؟

قالت: هل يمكن أن تصبح مثل أعدائك.. لو أصبحت مثلهم ستلفت نظره..

فكّر قليلاً ثم قال: ماذا تريدين منى الآن.. أن أوقع معك عقداً بالدم كما فعل فاوست..

قالت: لا. لا. يكفينى كلمة شرف.. لا عقد ولا يحزنون..

ـ يعنى تريدين عقداً عرفياً غير مكتوب..

ـ تقريباً..

قال بحزم ـ لن أعد بشىء.

قالت: لكن.. ألن ترفض مساعدتى؟

قال: أقبلها ـ إذا كانت غير مشروطة..

ـ قبولك مساعدتى يرضينى.. كيف كانت مشاعرك حين نمت معى المرة السابقة؟

نظر إليها وهى فى صورة تلك الفتاة، تلبس عباءة شفافة سوداء لا ترتدى تحتها شيئاً، قال: إن المتعة التى جنيتها لم أعرفها من قبل..

ـ لا تنسى أنى أستطيع التشكل بأى شكل تشاء.. لن تستعصى علىّ امرأة أو فتاة.. اختر من شئت تجدنى طبق الأصل أمامك.. نساءً وغلماناً.. سمعت الطبيب يقول لك ذلك..

ـ أكنت تلاحقيننى حتى فى عيادة الطبيب!

قالت ـ لأعرف كل شيء عنك.. أو تظننى أعلم الغيب..!

ـ كنت أظن ذلك..

قالت: أتريدنى كما أنا الآن.. فى هيئتى الحاضرة.. أم تريد امرأة أخرى.. حتى من التاريخ..

ـ فكرة مجنونة.. هل أحلم بأن تكونى كليوباترة..

قالت: كليوباترة .. نفرتيتي .. هيلين .. فينوس .. نرسيس .. مارلين مونرو..

فكرّ قليلاً .. قال: ألن يكون ما نفعله آنذاك نوعاً من الزنا..؟

ـ ملكات الجمال بين يديك وتتحدث عن الزنا.. وأنت طول عمرك غارق فيه..

قال: لكنى قررت أن أتوب وأعود إلى صوابى وأسير على طريق الهدى..

قالت: لن أعترض طريقك.. حتى لا تقول أنا المسؤولة..

قال: ماذا .. هل تغادرين؟

قالت: لا. نتزوج.

قال بهلع: أتزوجك؟ كيف وأنت متزوجة.. أتريدين الشيطان أن ينتقم منى..؟

قالت بحزم: لن ينتقم. أتظن إنه غيور.. كما أنى لست زوجته.. أنت لا تفهم.. علاقتنا علاقة مصلحة..

فكر قليلا: أنت بدأت تشترطين الآن.. زواج يعني عقد مكتوب.. وتتبعه شروط وواجبات وحقوق..

قالت: وماذا فى ذلك؟

- لا.. فيه الكثير.. انسى الموضوع.. اعتقد أن النوم معك ليس زنا.. فأنت لستى إنسية.. ولن تتسبب علاقتنا أى مشاكل اجتماعية.. ولن يكون هناك إنجاب فنحن من فصيلتين مختلفتين.. ثم أنت تتشكلين بهيئة من أريد.. يعنى الأمر كله ليس حقيقة.. بل وهم كالأحلام.. فليس فيما أفعله أى خطأ..

فكرت قليلاً، ثم جلست بقربه، فقد ظلت واقفة طوال حوارهما..

قالت: موافقة.. فقط لا تنكرني..

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أعيش معك هنا .. نعيش معاً.. نحب بعضنا وأساعدك..

قال: لا أحب أن ترافقني امرأة أربعاً وعشرين ساعة كل يوم..

قالت: أستطيع أن أتشكل في هيئة رجل.. أنسيت ذلك.. من الممكن أن أكون أيا من أصدقائك..

فكّر، فكرة جميلة .. لكنه قال: ومن أين لك بأفكار أصحابي.. حتى إذا أتقنت الشكل.. فعقليتك ستظل هي .. هي .. عقلية امرأة متفردة..

قالت: لا تخف عليّ.. كل ما تريد التحدث عنه ستجدني قادرة عليه.. كل الأسئلة التي تؤرقك ستجد إجاباتها لدّي.. أنسيت أني حضرت الخلق منذ بدايته.. فعندي ما لا تجده عند أحد.

قال: ما الذي يجبرك على ذلك.. لماذا لا تذهبين إلى حالك وتبحثين لك عن شيطان من فصيلتك..

قالت بعصبية قليلة: قلت لك لست شيطانة.. ثم إنى أسكن هنا منذ زمن طويل.. حتى قبل أن تُبنى هذه البناية.. أنت الذى أتيت.. أبحث لك عن سكن آخر..ضحك، وقال بسخرية: أنت أقدر على الانتقال.. ثم لماذا تريدين إقناعى بأنك إنسية.. هل هناك أحد من الإنس يستطيع أن يفعل ما تفعلينه.. أو عاش قدر ما عشت.. ؟

قالت: أنت لم تفهم شيئاً.. وأفقك ضيق مثل كل البشر.. الشيطان علمنى الكثير.. كما درست على الملكين هاروث وماروث فى بابل.. فماذا تريد أكثر من ذلك..

- يعنى كفرت..

صاحت: لم أكفر .. حتى لو حدث .. أريد أن أتوب..

سادهما صمت طويل، قام ليسير فى الغرفة، ولم يجرؤ على الاقتراب منها.. ماله ولهذه المصيبة.. لكن كيف سيتخلص منها..؟

قال أخيراً: ما دمت لا تريدين الانتقال.. فأنا الذى سأنتقل.. هل

بإمكانك أن تزودينى بالنقود..

قالت: بالطبع.. وبالقدر الذى تشاء.. لكن أليس من الأفضل أن تبقى.. وأظل ناصحتك المخلصة.. وراعيتك الأمينة..؟

هزّ رأسه محاولاً إبعاد الإغراء الذى بدأ يسيطر عليه..

قال: لو وافقت على بقائك.. هل معنى ذلك أن ترافقينى طوال اليوم والنهار..؟

قالت: ماذا ترى إذن؟

قال: تظهرين فى الليل فقط. النهار لى والليل لنا معا.. هذا آخر كلام عندى وإلا لا اتفاق.

قالت: الليل لى والنهار لك.. كما تشاء..

سألها: وإذا احتجتك فى النهار.. كيف أجدك..

ابتسمت: نادى علىّ.. ليليت أكون بجانبك.. هيا إلى غرفة النوم.. لندشن هذا الاتفاق.

* * *

استيقظ في الصباح وهو يشعر بالارتياح. لأول مرة منذ شهور ينام نوماً عميقاً.. نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط أمامه، الحادية عشرة صباحاً، نام حوالى ثمانى ساعات. خرج إلى الصالة، تطلع إلى الكتب الموضوعة على الكتب، وتذكر كل ما مّر به دفعة واحدة. يا إلهى. دخل المطبخ ليعد فنجان قهوة. لا تهم المواعيد اليوم، فهو في ميلاد جديد. نوازع الشر تطل برؤوسها تشاغبنى، تغرينى بإطاعتها والتلذذ بالنتائج. كنت أقمعها دوماً، وإن كنت أنفذ الكثير منها فى أحلام اليقظة. أما على أرض الواقع فلم أجرؤ على القيام بشىء أرد به على ما أراه مهينا لى بشكل من الأشكال. كنت أوثر السلامة تجنباً للمشاكل، وخوفاً من وقوع المحذور، وهو الفشل أمام الآخر. اتخذت من الحكمة القائلة "بات مغلوبا ولا تبات غالبا" حكمة أمى المشهورة طول عمرها، نبراسا أهتدى به، فبدوت محباً للخير، متسامحاً، بينما فى الحقيقة قوة العجز تأكلنى من الداخل، وتفرينى ولا أستطيع منها فكاكاً.

لم أكن كذلك في البداية، بدأت منطلقاً أتصرف عفوياً تجاه

كل موقف، دون حساب للنتائج، أحس أنى أمتلك حياتى والدنيا معها، حتى وجهت بقوة أكبر منى حطمتنى، جعلتنى أعيش مذعوراً بقية عمرى، أتوقع مصيبة عند كل ناصية وفى كل ساعة، قوة اغتالت كل الأشياء الجميلة فى حياتى وعلى رأسها حريتي والتصرف بتلقائية فى أمور حياتى العادية. قوة جعلت الخوف رفيقى، والحذر أحد طباعى الأساسية، أخشى أن أتخطى حدودى فأقع فيما أكره، حدث ذلك فى أول احتكاك مع تلك القوة الغاشمة، فذابت الابتسامة عن شفتى، وثقلت خطواتى، وانكمشت فى عالمى الخاص المحدود، وتجنبت الناس، كنت أخطف متعى اختطافاً، بأقل الخسائر الممكنة، وابتعدت عن أشياء كثيرة كانت محببة لى دوماً، لم أكن مستعداً للتعرض ثانية لما تعرضت له على يد تلك القوة المسيطرة، الناس أشرار مهما بدا منهم غير ذلك، وحين ابتعدت ثارت حولى الشائعات، ولم أهتم، لقد أدركت أخيراً عبثية كل شىء، ولم أطلب من الله سوى الستر، على أمل أن تهدأ نفسى، ويرضى ضميرى، وفلسفت حياتى على مبدأ الخير وحده، واتخذت من الحلم سبيلاً لمواجهة كل ما يقابلنى من مشاكل، أخوض حياتى رافعاً ذلك

الشعار تاركاً الناس وحياتهم ولا أتدخل فى أمورهم عسى أن يتركونى فى حالى، لكن عبثاً، وكأنهم يقولون: حتى لو ابتعدت فلن نتركك فى حالك.. أنت واهم، حتى لو عشت فى صحراء تخلو منهم، فسيبرزون لك لمضايقتك ولو بالتقولات يثيرونها حولك، وكانت أكثر الشائعات مدعاة للابتسام تلك التى أثارتها بعض النسوة فى الحى إنى أعاشر جنية تغنينى عن البشر وتجعلنى عازفاً عن عالمهم مكتفياً بعالمى.

جلست مرّة عند المكوجى، فبدأ يحدثنى عن رجل تزوج جنية، أراحته تماماً ووفرت له كل شىء. واشترطت عليه شرطاً واحداً: ألا يدخل عليها فجأة أبداً. يستأذن قبل أى دخول سواء داخل الشقة أو خارجها. ومرة سولّت له نفسه وقد تيقن من حبها له، أن يفاجئها. فدخل شقته متلصصاً، فوجدها مستلقية على ظهرها فى الصالة، رافعة أحدى ساقيها، ينبعث من إصبع قدمها الكبير لهباً قوياً تحت حلة معلقة فى الهواء فيها طعام الغداء. أغمى عليه، ولم تسامحه حتى أقسم لها ألا يعود إلى ذلك أبداً.

لماذا يقصّ عليّ المكوجى هذه الحكاية؟ هل يريدنى أن أحكى له عن الجنية التى أعاشرها؟ وهل يصدق تلك الشائعات التى تتردد حولى؟ ألم يتساءل لماذا أحضر له ملابسى ليغسلها ويكويها مادامت الجنية تستطيع فعلَ ذلك؟ حتى مجرد المنطق البسيط يفتقده هؤلاء البشر .. أو يظن أنى أفعل ذلك ذرا للرماد فى العيون!

ها هى الفرصة تسنح، وتصبح لى جنية تعيش معى فى الشقة، تؤدى لى ما أريد، وتقدم لى كل ما أشتهى، وتعطينى عناصر قوة افتقدتها وأفتقدها منذ زمن، فلماذا لا أستغلها؟ لماذا لا استخدمها فيما يصلح هذا العالم؟ لن أستخدمها فى الشر، بل فى خير الناس، أكون يد الخير التى تقدم الخير للأخيار وتضرب على يد الأشرار، يد العدالة التى تحقق العدل فيمن لم تطلهم يد العدل، فرصة أتاحها لك الخالق كى تنفذ مشيئته، أليس هو القائل عز وجل "وإن أكثر الناس لفاسقون" صدق الله العظيم. أتت يد الله التى ستقلل من هذا الفساد

المستشرى فى الأرض، يد الله الرحيمة بالأبرار التى ستخلصهم ممن ينغصون عليهم حياتهم من حثالة البشر.

* * *

من يرى الشقة الآن ينكرها، انقلب حالها وتغيرت أحوالها، النوافذ مفتوحة ولم أعتد أن أفتحها، الستائر مرفوعة ولم أحركها يوماً، أشعة الشمس تغمرها والهواء يتلاعب فى جوها، ربما لأول مرة منذ سكنت هنا. الحمام نظيف وكل ما فيه يلمع، كل شيء مرتب ومنظم، الكتب منسقة، الزهور فى فازات على كل ترابيزة، ورائحة الأنثى فى كل مكان. الأمر الآن أصبح مؤكدا، فلم أقم بكل هذا الجهد لتبدو الشقة بالشكل التى هى عليه، ما رأيته واقعاً إذن وليس حلماً، هناك الكثير الذى لم أعرفه منها، صدمة اللقاء الأول أنستنى الكثير الذى يجب أن أعرفه، لقد وافقت أن لا تحكم علاقتنا أى شروط، لكن يجب أن أكون مطمئناً وأبدأ بالتصرف وأنا على ثقة من نفسى وما أقوم به.

إنى أشم رائحتها، أو إنها تركتها هنا خصيصا كى أشمها،

عزمت على عدم الخروج علها تأتى، النهار لى والليل لها، مازلت مدهوشاً من اللقاء، أعيد التفكير فيه مرات ومرات، ليس حلما، لكنى أريد التيقن. ناديتها باسمها، وقمت أدور فى الشقة وأنا أنادى ليليت.. ليليت، وأصغى لعلى أسمع صوتاً، لم يجبنى سوى صوت مواء قطة خارج الباب، ربما هى، فهى تستطيع التجسد فى أى شكل.

فتحت الباب وبسبست، اقتربت منى قطة بيضاء جميلة، تتمسح بى.

سألتها: هل أنت ليليت؟ قالت: ناو..

قلت: لا أفهم لغة القطط فلتكونى آدمية مرة أخرى، لكنها لم تتحول. رميت لها قطعة جبن رومى، اختطفتها بفمها وجرت لتأكلها بعيداً، قبل أن أقفل الباب، كانت بنت الجيران تجرى مسرعة، تنادى على قطتها، تحملها وتدخل شقتها وتقفل الباب.

* * *

لو كانت حقيقة لحضرت، لو حضرت فما الذى سأطلبه منها؟

جلست إلى طاولة فى الصالة، وورقة بيضاء وقلم أمامى، بجانب فنجان قهوة. جلسة مواجهة النفس، ما الذى أريده من الدنيا حقاً؟

أهو الجنس؟ لا أظن على الرغم من سعيى الدءوب إليه، إلا أنى كنت أحصل عليه، ليس مشكلة عويصة فى النهاية، وليس مطلباً يستدعى أن يتوسط لى فيه الجان. مع إنها جذبتنى وشدتنى إليها بالجنس.. سواء كانت وهما أو حقيقة، لا ليس الجنس هو ما أريد، بل كنت قررت الاستغناء عنه فى تلك الليلة الأخيرة.. ألم أكن قد عزمت على الاستقامة وتوديع كل ما يمكن أن يغرينى فى هذه الدنيا؟

إذن هل هو المال؟ أعيش حياتى بشكل يرضينى ، لست غنياً، لكنى لست معدماً، معاشى يكفينى خاصة إن مطالبى محدودة، معى ما يكفى أن أسكن وآكل وألبس وأشرب بين حين وآخر زجاجة بيرة وأتفسح هنا وهناك، ليس المال هو هدفى، حتى حين يكثر فى يدى أحياناً أشعر بالخوف، وأحس كأن كارثة ستقع فوق رأسى تذهب به، ليس المال.. أبداً.

ربما أكثر ما أحتاجه هو المعرفة.. أسئلة كثيرة تقلقنى ولا أعرف إجاباتها.. أعيش معها وإيمانى، أبعدها عن الذهن ولا أفكر فيها كثيراً.. لا مانع من المعرفة إذا كان لديها الإجابة. هى المعرفة ما أريد، وذلك ما كنت أبغى.

ركنت إلى ذلك، ووضعت القلم وتنهدت بارتياح.

لكن بدأت فكرة تلعب فى ذهنى وتراودنى، فكرة الإصلاح. ما الذى يمكن أن أفعله حيال ذلك؟ على الأقل فى المحيط الذى أعيش فيه وعلى قدر ما أستطيع .. الدوافع موجودة وقد تحدثت عنها.. لكن الأسباب؟ أهى القوة حين تكون فى اليد، تعوض العجز الذى يكبل المرء ويمنعه من رد الفعل؟ كم من ليالى أرقت فيها أتخيل فى أحلام اليقظة ردود أفعالى تجاه كل من أهاننى، وهى أحلام تبدأ بلو.. وتنتهى بالعجز الذى يقعدنى عن التصرف والفعل، فأكظم غيظى فى داخلى، وابتلع الإهانة لتزداد حياتى بؤساً، ويزداد إدراكى للمعنى العميق الذى كان يقصده الرسول (صلعم) حين يستعيذ بالله من الذل والفقر وقهر الرجال.

كل الفقراء والبسطاء يبتلعون الإهانات ويسكتون عنها حين

يواجهون قوة أعتى منهم، لضعفهم وقلة حيلتهم، لكن أحياناً يكون انتقامهم عجبا، وتفكيرهم فيه أكثر غرابة، لكن المهم أن يرضوا عن أنفسهم وينامو آمنين، لا يحيك فى صدورهم أن خصمهم قد غلبهم، وأن نصيحة أمهاتهم أن يباتوا مغلوبين لا غالبين لم تجد معهم.

فى الحقيقة، تعلمت منهم وصرت مثلهم فى الاحتيال والضحك على النفس وإقناعها بأن المرء قد انتقم لها، فترضى عنه وترضيه وتضفى عليه سعادة ما كان يستطيع الحياة بدونها.

ينتقمون بالكلمة، والنكتة الساخرة، بالتشاطر على البردعة بدل مواجهة الحمار. مثلا ذلك الفتى، ابن أحد الجيران، الذى ذهب ليتفرج على فيلم فى أحد المقاهى ليلاً، وجاءت الشرطة فلّمت عدداً من الشباب كان هو ضمنهم، أخذوا بطاقته ودون سؤال أو جواب انهالوا ضرباً عليه وألقوه فى الحجز أياماً. هكذا، إهانة وإذلال دون سبب. والذى خز فى نفس الفتى، هو أن الضابط الذى ألقى القبض عليه، كان ابنا لجارتهم، يسكن

فى عمارة قريبهم، يعرفه، لكنه يريد آن يؤدبه لأنه تجرأ مرة وتخانق معه وأمسك به حتى تدخل أولاد الحلال بينهما. وكتمها الفتى فى نفسه، فكيف تظنون كان انتقامه؟ بدأ يشاغل زوجة الضابط، ووضعها "فى دماغه" كما يقولون، كان يعرفها منذ صغره وقبل أن تتزوج من الضابط الذى يكبرها بخمسة عشر عاماً، لم تستطع الزوجة المقاومة، وحددت له موعداً يزورها فى بيتها، ولم يتردد.

قال لى: مارست معها بغل، بحقد، بكراهية، بعنف، كنت أنتقم منه فيها، هى مرة واحدة، وتجاهلتها رغم مطاردتها لى، أرحت نفسى وأخذت ثأرى منه ولعلها تكون قد حبلت ليربى طير غيره حتى يتعلم كيف يتغطرس ويتحكم فى خلق الله.

قلت له: لكنه لا يعلم بما فعلته، فلا لذة للانتقام دون أن يعرف.

قال: لا يهمنى، المهم أنى أعلم وأستطيع آن أنام غالباً لا مغلوباً.

قلت ـ وقد كان طالباً فى الجامعة ـ أهذا هو المنطق الذى تعلمته؟

قال: العواطف لا علاقة لها بالمنطق ولا تخضع لقانون علمى.. المهم أنى استرحت.. وأعرف إنها ستقلب حياته إلى جحيم.. فلن تكون هى هى بعد ما حدث..

قلت: سيرجع ذلك بالشر على خلق الله..

قال: يعنى هل أخطأت فى رأيك؟

قلت جادا: لا أعرف.

قال: هى مرة واحدة ولم أكررها رغم مطاردتها لى.. ثم إنى لم افعل ما فعله أحد أصدقائى .. لقد كان انتقامه أكثر بشاعة..

سألته: مع الضابط نفسه.

ـ لا. مع آخر يسكن قربهم. أهانه وضربه أمام شباب الحى.. فانتقم منه فى ابنه الصغير.. الذى مارس معه الفاحشة..

مازال فى عقول الشباب، هذه الفكرة التى تحيط بالجنس واعتباره وسيلة للانتقام، تحاول الانتقام، أنت الضعيف، فمن

أهانك بالتعامل الجنسى مع زوجته أو ابنته أو ابنه، انتقام ساذج لكنه فعّال على المستوى النفسى لمن يقومون به. يزيل توترهم، وإلحاح الضيق الذى يلاحقهم، المهم ما تقتنع به النفس فترضى، لا ما يقدمه الواقع من معنى. وفى الغالب تكون هذه الطريقة فعالة ومؤثرة مع الشباب الطائش الذى يُخضع رغباته لهذا الاستحواذ الذى لا ينصرف إليه الأكبر سناً.

لو امتلكت القوة، فكيف سيكون انتقامى أو إصلاحى؟ لم تطل بذور الانتقام برؤوسها داخلى إلا حين قابلت ليليت، ـ هل قابلتها حقا ـ، ولوحت لى بامتلاك أسباب القوة. لو بدأت فى مطاوعة هذه الرغبة فلابد من التنازل، وإذا بدأت أتنازل فلن يكون هناك سقف لما يمكن أن أصل إليه، القوة مغرية، وفى سبيلها قد يتنازل المرء عن الكثير إلا من رحم بى.

اكتشفت الآن أن قوة التسامح داخلى، أضعف بكثير من لذة الانتقام. العجز يجعلها أقوى، أما القوة فتدفعها إلى ذرى عالية تتلفع بلذة لا تضاهيها حتى لذة الجنس نفسه. هل يعنى ذلك أن كل تسامح هو ضعف فى الأصل، قد أكون مخطئاً، لو ملك المرء

طبع التسامح بالفعل لاستحق تمثالاً يحج إليه المنتقمون. إن القلة التى تستطيع أن تتسامح لا لضعف أو عجز، أرفع يدى تحية لها. هل أستطيع أن أكون منها؟ أعيش حياتى دون النظر إلى الماضى لا برضاً ولا بسخط، أنسى وابدأ حياة جديدة فيها كل ما يرضى الضمير ويجعل الإنسان ينام مستريحاً. هل أستطيع أن أكتب كل هذه المصائب التى أهدرت الكرامة، وإذا استطعت فما بالك بما يجد فى الحاضر من إهانات! هل ابتلعها أو أنتقم لها ليشعر أناس جدد بالرغبة فى الانتقام وتظل الساقية تدور دون أن تشبع، فتكون الحياة كالفرن الذى يحتاج إلى وقود فى كل دقيقة حتى يظل ملتهباً؟ لا أدرى.. لم أستطع بعد التغلب على نزوات النفس التى تُغرى بمجد زائف وقوة وهمية.

كل هذه الأمور تموج فى النفس من لقاء واحد لست متأكداً من حقيقته، فكيف لو تمكنت منها وأصبحت قوتها الحقيقية بين يدى، كم هى ظالمة هذه النفس وكم تجنى على صاحبها لو لم يراقب تصرفاتها بوعى وحذر.

حتى الآن ذنوبى بسيطة لم تمتد لتصبح سداً منيعاً يحجب عنى النور، لكن يبدو إنى سأبدأ بناء سدّى الخاص وقد لا أستطيع النظر وراءه بعد ذلك.. يا أيتها النفس كونى على حذر.

* * *

عدت بعد جولة فى وسط البلد، نوع من القلق يسيطر علىّ كأنى فى انتظار مصيبة تقع فوق رأسى، أجلس وأحاول تحديد سبب حدوث هذه الحالة حتى يمكننى التغلب عليها، ولا أستطيع، فهناك عوامل عدة متداخلة لا يستطيع المرء فصلها عن بعضها. سبحانك ربى ما أصبرك، أعجب من سعة حلمك على الناس، من لى بذرة حلم واحدة تعيننى على تحمل هذا الإنسان الذى جعلته خليفة فى الأرض فعاث فيها فساداً.

أغضب من نفسى وأسائلها ماذا تريد؟ هل بإمكانى إصلاح الكون، لو أراده الله غير ما هو عليه لكانت إرادته، لكن كيف يمكن للإنسان السوّى أن يصبر على هؤلاء المفسدين فى الأرض خاصة إذا طاله ما يسببونه من مصائب؟ الخير والشر أمران

نسبيان، قد تكون خيراً فى عرف نفسك، وشريراً فى عرف الآخرين. بإمكانك أن تبتعد عن كل ما ومن ينغص حياتك، وتعتزل من ترى فيهم مفسدين في الأرض، لكن هل تستطيع ذلك؟ وإذا لم تكن تستطيع، فكيف ستتمكن من الحياة بسلام، أحيانا لابد أن تكون قاسياً حتى تعيش فى أمان..

ـ هل تريد أن تكون شريراً؟

رفعت رأسى غير مصدق، كانت تقف أمامى فى أبهى حلة وأجمل زينة..

قلت: أريد.

قالت: هل فكرت فى الأمر جيداً..؟

ـ فكرت..

قالت: ومن الذى نغص عليك يومك حتى جعلك فى هذه الحالة.

ـ لا أعرف.

سألت: وما الذى تريده منى؟

فكرت فى طاقية الإخفاء، حلمت وأنا صغير أن أملكها، وصبرت على الجوع أربعين يوماً إلاَّ من الخبز وزيت الزيتون وجرعة ماء، مطبقاً الطريقة التى تحضّر بها كما جاء فى أحد كتب السحر، لم أدرك آنذاك استحالة وجود مثل هذه الطاقية. من العبث أن أطلبها منها حتي لا تستسخفنى ..

سألت: ففيم تفكر؟

ـ فى الطريقة التى يمكنك أن تساعدينى بها.

قالت: هل تريدنى أن أقوم بعمل نيابة عنك..؟

ـ لا.. فذلك يُنفى قيمة العمل. أريد أن أعيش المخاطرة نفسها والمغامرة ذاتها حتى أشعر بنفسى.. وأرضيها.. جهزى لى فقط ما أحتاجه..

سألت: وما هو؟

ـ مدفع برتا بكاتم صوت. ذلك المدفع التشيكى الصغير الذى يمكنه إطلاق طلقة طلقة أو مجموعة طلقات حسب الطلب. وعدة خزن من الرصاص.

قالت ـ فقط ؟

ـ وتعتنى بى وأنا أقوم بعملى.. فالمرء لا يعرف الظروف..

قالت: أتريدنى أن أحرسك من الموت؟

ـ أعرف أن ذلك ليس فى استطاعتك.. لكن افعلى ما فى قدرتك.. مثلاً لا تجعليهم يدركونى لو حدث ذلك .. عطليهم قدر الإمكان..

قالت: أخاف عليك..

ـ تخافين أن أموت .. ليست مشكلة؟

قالت: آنذاك سأخسر الكثير..

ـ لن تخسرى شيئاً.. تبحثين عن شخص آخر تتسلين به..

وكان المدفع مع الرصاص على الطاولة، ارتديت فوق ملابسى عباءة مغربية أخفت جزءاً من الوجه، وأعطتنى شكلا غريباً من الصعب التعرف على صاحبه إذا خلعها.

منتصف الليل، فلأبدأ أولى جولاتى فى هذه المدينة المقلقة المجنونة.

الشوارع هادئة. المارة قلّة، والضوء الضعيف المنبعث من أعمدة النور المتباعدة لا يبدد الكثير من العتمة المنتشرة. داخلى يغلى، من أين جاء كل هذا الغيظ؟ ملت إلى دكان صغير تقف فيه امرأة عجوز تلبس فستاناً أسود تبدو الطيبة على ملامحها. أخرجت النقود وناولتها لها وطلبت منها علبة سجائر. نظرت فى النقود وتفحصتها جيداً، ثم أعادت لى إحداها قائلة:

- أعطنى ورقة غير هذه ..

قلت: مالها؟ إنها جديدة والحكومة هى التى أصدرتها..

قالت: لكنى لا أخذها.

قلت بعصبية: لو بلغت عنك فقد تدفعين غرامة كبيرة.

قالت باستخفاف: بلّغ .. أنا أعامل ربنا

كان يقف أمام الدكان رجل عجوز جاء ليشترى ريفو، قلت له: أيرضيك هذا؟ يبدو إنه جار لها، فقد قال: ألست تريد أن تبلغ عنها.. اذهب وبلّغ. وأضافت المرأة بسخرية: القسم قريب من هنا..

وكانت نظرات العداء تلاحقنى منها. لا أحد فى الشارع، المدفع تحت العباءة. سحبته وأنا فى مواجهتها، وببساطة رصاصة فى رأسها وأخرى فى رأسه، كاتم الصوت اختراع سحرى، أخذت علبة السجائر ووضعت النقود فى جيبى ومضيت.

النشوة تجتاح كل أعضاء جسدى، هل بداخلى شرير دون أن أدرى؟ عجوزان هما من انتصرت عليهما. يا للمهزلة! قدماى تجوبان الحوارى المعتمة، بعض الأماكن هادئة لا تسمع فيها نأمة، وبعضها صاخب، مقهى تحت عمارة سكنية، يفترش كراسيه تحت نوافذ البيوت، ولعب الطاولة والدومينو مسموع عن بعد، الرواد كثيرون، لا يسهل الخلاص منهم دون مخاطرة كبيرة، خيمة منصوبة قرب بيت، الصخب يعلو داخلها، يعربدون ويدخنون البانجو ويثرثرون، حياتهم وعدمها سواء، بل إن حياتهم تضر بالناس، أليس منع الضرر خيراً وفضيلة؟ فليكن..

رفعت طرف الخيمة وتسللت إلى الداخل، وجم الحضور، لا وقت للتفسير وكان ما كان. ما أروع القوة، والأروع منها إحساسك بأنك قوى، تستطيع أن تتصرف كما يحلو لك، لكن

المصيبة تكمن لو كنت على خطأ، هى رائعة حين تكون على صواب، وأرجو الله أن أكون على دربه. راكب دراجة نارية صوتها مزعج لدرجة كبيرة، يلعب فى الشوارع بعد منتصف الليل دون أن يفكر بأحد، قبل أن أفكر كانت يدى تضغط على الزناد، فيقع على الأرض، وتندفع الدراجة لتصطدم بحائط وتنفجر. جريت بسرعة، وتسللت إلى حارة مظلمة، وخرجت إلى شارع رئيسى، سرت قرب المحلات التجارية المقفلة، ثلاثة من لصوص الحى، لا يسرقونه، بل يحتمون به، يخططون ثم يقومون بضربتهم، يخرجون على أى شخص يسير فى شارع مظلم، بالمطاوى والسنج، يأخذون نقوده ويتركونه، وإن حاول المقاومة، ينال ضربة مطوى فى وجهه، فتقطع أذنه، أو تقتلع عينه، أو يشج رأسه أو تطير قطعة من أنفه، هذا إذا لم يقتل. يتوقفون فى زاوية، يدخنون البانجو وينتظرون الفريسة، حيّونى قبل أن أصل إليهم، أو حتى يتعرفون علىّ، ربما توجسوا شراً، لم أرد التحية، ولم أنبس بكلمة، أبرزت السلاح وكومتهم، الليل ستّار والناس جبناء أمام القوة، لقد خلصت العالم من شرورهم..

واصلت السير بسرعة، قلت فى نفسى يكفى الليلة، خلعت العباءة ولففت المدفع فيها وحملتها على ذراعى. ستبدأ الجرائم بالتكشف الآن، الثانية صباحاً ومعظم الناس نيام، هدأ قلبى حين دخلت البناية، صعدت السلم بسرعة، تركت نور السلم أمام شقتى مضاءً. وجدتها تقف هناك، اضطرب قلبى، اخافتنى قليلاً، الجارة التى تلاحقنى، "متشيكة" وكأنها ذاهبة إلى حفلة..

قالت رداً على التساؤل فى عينى: زوجى لم يعد حتى الآن.. ألم تره؟

قلت همساً مثلها: أنت تعرفين أن لا علاقة لى بزوجك ولا أعرف أين يقضى سهراته.

قالت: سمعتك تعود .. قلت أسألك..

لم يسمعنى أحد، لقد رأتنى. كانت تقف فى الشرفة. أطلت النظر إليها وتحركت فى نفسى دوافع أخرى.

قلت: قد يعود بعد قليل.

قالت: مادام لم يعد حتى الآن .. فمن المؤكد إنه ذهب إلى

طنطا.. عن إذنك. ولم تتحرك من مكانها. وبدأت النفس الأمارة بالسوء عملها..

قالت: تدخل الشقة أفضل.

قلت: لا. هنا. على السلم.

فتحت الباب ودخلت. وضعت العباءة والمدفع فى الدولاب. خلعت ملابسى ودخلت الحمام وأخذت دشاً ساخناً. وأنا أمنّى النفس بأن ليليت لم ترنى. ليليت! جلست إلى الطاولة أشرب كوباً من الشاى. وانتابتنى نوبة ضحك..

أمسكت قلماً وبدأت أكتب: هأنذا فى ليلة واحدة.. حطمت ثلاثاً من الوصايا.. سرقت وقتلت وزنيت.. وذلك دون أن أوقع عقداً مع الشيطان.. ماذا تريد ليليت أكثر من ذلك؟ هل هذا ما أريده.. قُتل الإنسان ما أكفره.. هل فعلت هذا بنفسى.. أم إنها هى السبب.. ليتنى ما رأيت هذه الشيطانة ولا فعلت ما فعلت. أيكون ما فعلته خيراً؟ لا أدرى.

وفهمت الآن معنى الدعاء "ولا تدخلنا فى التجربة". وأنت

طليق ما أحلى الكلام الذى تقوله، ولكن عندما تدخل التجربة لا تعرف ما توسوس لك به نفسك، تصبح شخصا آخر. لقد كنت منتشياً قبل قليل فيما الذى نكسنى بهذا الشكل. خوف ورعشة وتوجس. ابتلعت حبتين مهدئتين واندسست فى السرير. ووضعت شريط مصحف مرتل فى جهاز التسجيل القلاب، وأنا أردد فى نفسى لن أكرر ما فعلت لن أكرر ما فعلت. اللهم اغفر لى سبحانك إنى كنت من الظالمين.

تخيلت إنها تقف عند رأسى، تضع كمادات باردة على جبينى.

وجاء صوتها همساً: بماذا تهلوس؟

قلت بصوت خافت: كله منك.. ابعدى السلاح لا أريده فى شقتى.

قالت: حتى المسدس الذى فى دولابك..

قلت بنرفزة: ذلك المسدس اشتريته من مالى.. وهو لحماية نفسى.. ابعدى سلاحك فقط..

قالت: إنك تشع حرارة.. جسدك ساخن.. هى حمىّ أصابتك..

- حطمت بسببك كل الوصايا.. وارتكبت كل الكبائر.. لعنة الله عليك..

قالت: خيراً تفعل.. شراً تلقى..

- أنت كلك شر .. لا ذرة خير فيك..

قالت: لو قلت هذا عنك لما أخطأت..

- دثرينى.. أشعر بالبرد..

قالت: لعل ذلك يأتى بخير..

- لن أرى الخير وأنت هنا..

قالت: أنت تهلوس.. انتظر..

عادت وبيدها حبة دواء وكوب ماء. شربت. ما هى إلاّ لحظات حتى رحت فى سبات عميق.

* * *

حقيقة أم خيال، وهم أو واقع، ماء أو سراب.. لست أدرى. وضربنى الهاجس كيف يمكن أن تأتى إليك والمسجل لا يتوقف عن ترديد المصحف المرتل؟ لكنى لا أشعر بالاطمئنان إلا بسماع القرآن، وهل تريدها أن تأتى؟ هل استدعى الشياطين بنفسى، أينقصنى إرهاق جديد وعيشة ضنكا، ومع ذلك أوقفت المسجل، ومكثت بقية اليوم فى البيت أقرأ. سيستعصى علىّ النوم مادمت لم أرهق جسدى، لا رغبة لدّى فى الخروج والمشى قليلاً، استلقيت على السرير بعد أن أطفأت النور. هل الأمر كله وسوسة من الشيطان، أو ما هذا الذى يحدث لى. أين تلك اللحظات الرحيمة التى أعادتنى إلى نفسى وأعادت نفسى إلىّ، ووضعتنى على طريق الهدى من جديد. هل ينقلب الإنسان على نفسه فى لحظة لمجرد نزوة عابرة! حقا قتل الإنسان ما أجهله، هأنذا أدرك كل شىء، ولا أعرف كيف أثوب إلى رشدى، هل للشيطان قوة تبلغ هذا الحد؟ تصل إلى درجة نزع الإنسان من نفسه المطمئنة وإلقائه لقمة سائغة إلى أخرى أمّارة بالسوء. تصطك أسنانى خوفاً وترقباً، أين حولى وقوتى؟ كأنى ريشة لا

حول لها ولا إرادة. أيها اللعين أين رميت نفسك؟ امرأة فاجرة تلوح لك في الأفق تفعل بك كل هذه الألاعيب : لتأتى حتى أحطمها وأدوسها وأشرب من دمها، تعالى أيتها العابثة حتى ترين قوة الإيمان وكيف يكون الزهد في الدنيا وملذاتها، كيف يتصرف من وهب نفسه لله ولا شيء آخر.

كنت متحفزاً متوثباً متفاخراً بقوتى حين حضرت. الهيئة ذاتها، أحب أشكال النساء إلى قلبي، كيف عرفت الداعرة هيامى بمثل هذا الشكل لتأتيني به؟ أين تكون وأين تذهب حين لا توجد معى فى الشقة؟ جلست على كرسى صامتة، تركتنى لنفسى لأعود ذلك الإنسان الجبان الذى يذله الجمال وتغذيه الرغبة، لو تأتيني بشكل عفريت مخيف المظهر، أخاف منه. أقاومه وأكرهه وأحاول قتله، أما هذا الجمال وتلك الرقة لا يطاوعني قلبى أن أهينها، أو أتخلص منها حتى لو كانت شيطانة، لم يفصل بين الغضبة وانهيارها إلا مدة واهية، الحلم سيد الأخلاق، لأحاورها بالتى هى أحسن، ولعل وعسى، أدرك أن ذلك من باب الخطأ، فمن هذا الباب ستدخل وتتمكن.

قلت: أين تذهبين حين لا تكونين فى الشقة؟

قالت مبتسمة: هل تغار علىّ..

- انسى السؤال .. هل تملكين طاقية الإخفاء..

قالت: حلم البشر طوال الزمان.. لكنى أملك ما هو أكثر..

- ما هو هذا الأكثر؟

قالت - كل ما دار فى ذهنك من أحلام وأفكار..

- وهل تقرأين ما يدور فى الذهن..

قالت: لا يخفى علىّ فى أغلب الأحيان ما يدور فى ذهن البشر..

- أعوذ بالله منك ومن جنسك..

قالت: لماذا تستعيذ بالله منى .. لقد قلت لك إنى مؤمنة..

- إذا كنت مؤمنة فدعيني لحال سبيلى.. اتركينى أقضى البقية الباقية من حياتى فى هدوء.. لا أريد أن أقابل ربى كافراً أو عاصياً..

ابتسمت ابتسامتها الخلابة، لكنها لم تؤثر فىّ. كنت أدعو الله فى سرى أن تذهب، لكنها لم تذهب. تمنيت الرحيل بدورى، لكن هناك ما يشدنى للحياة، شىء لا أدركه ولا أعرفه بالتحديد، أكاد ألمسه. وإذا حاولت الهروب منه يطاردنى ويظل يطاردنى حتى لا يجعل لى مجالاً للفعل، ويتلبسنى ثانية .. ما الذى يحدث لى؟

قالت: أنت لست على ما يرام ...الهالة المحيطة بجسمك مظلمة ومنكمشة.. ألقت إلىّ بطوق صغير قائلة: ضع هذا حول رقبتك.

قلت: أتريدين قتلى؟

- بل أريد حياتك.. فإذا مت الآن أكون قد فشلت

قلت: ما حكاية هذه الهالة حول جسدى؟

- كل كائن حى تكون حوله هالة ناتجة عن حقل الطاقة داخله.. وهى ليست ثابتة فى شكلها أو حجمها أو لونها.. وهى تعبر عن حالات المرء من سعادة وسرور وحزن وألم وضيق وقلق.. فإذا تخلل لون الطاقة الجسدى حزمة من ضوء أحمر

فالشخص في وضع جسدى جيد، أما الحزمة البيضاء فللأشياء المعنوية، واللون القرمزى يعبر عن الوحدة وغياب الحب، والأحمر القاتم غضب، والأصفر السعادة والسرور والذكاء أيضا. واللون البرتقالى يعبر عن التوازن، والأخضر السلام النفسى والانسجام، والأزرق الروحانية وصفاء النفس، واللون البنفسجى يحقق التوازن العقلى وكل ما يتعلق بتطوير المعرفة الروحية والاستبصار..

قلت: وأنت وحدك ومن هم مثلك تستطيعون رؤية هذه الهالات؟

ـ لا. فيمكنكم الآن قياس ضوء هذه الطاقة عن طريق التصوير بعملية التحسس الحرارى.. فإذا كان المرء سعيداً كانت الهالة أكبر وأكثر إضاءة.. وإذا كان المرء حزينا تصغر وتصبح مظلمة.. وهالتك صغيرة ومظلمة.. وهذا الطوق سيخرجك من حالتك.. لكنى أفضل أن أصحبك فى نزهة صغيرة ترفه عنك..

قلت ساخراً: إلى الجنة أم إلى الجحيم؟

قالت: من حقك أن تسخر..

أحسست ببعض الانتعاش كمن شرب بضع كؤوس من الخمر، راودتني نفسي أن أرافقها إلى المكان الذي ستأخذني إليه، لكن قد تقودني إلى عالم شيطاني مثلها فأحرق شجرة الإيمان الراسخة في قلبي. ماذا لو قتلتها؟ أعرف من تراثنا إنك إذا قتلت الكائن الذي يتجسد فيه الشيطان فإنه يموت لتوه. مسدسي احتفظ به في الدولاب، أحضره في ثوان وأقضي عليها، لكن هل تتبخر لأنها شيطانة أم تظل الجثة ملقاة في الشقة؟ كيف أتخلص منها آنذاك؟ هنا المعضلة، هناك احتمال أن تكتشف الجريمة، وأدخل في سين وجيم وأنا لا أعرف هذه التي تجسدت في هيئتها أهي إنسانة حقيقية من عصرنا أم امرأة تاريخية أو حتى ليس لها وجود..

كانت نظراتي مثبتة عليها، ربما غفلت عنها ثوان، بين رمشتي جفن، وحين تنبهت كانت قد اختفت. لقد قرأت أفكاري

اللعينة. عجبت من نفسي التي فكرت في القتل، نحن نرجم الشيطان ليس لأننا مترفعون عن القتل، بل لأنه لا يموت، لقد وعده الحق أن يظل حياً حتى يوم البعث، ترى هل ينطبق ذلك على ذريته! أما الجان فأمرهم مختلف، وما أدراني إذا كانت هذه جنية أو شيطانة وهي تدعي إنها إنسية، حلت عليها فضلة نقمة من الشيطان فظلت حية طوال هذه المدة منذ آدم إلى اليوم، منذ الإنسان العاقل حتى الآن، فترة تمتد لأكثر من عشرين ألف سنة، لابد أني فقدت عقلي حتى أصدق تخاريفها.

رفعت عيني حيث تخيلت إني سمعت صوتاً، فوجدتها أمامي ثانية، ربما اختفت لدقيقة واحدة، أو إنها كانت مكانها وتخيلت إنها اختفت، أتلعب بي أم إن نفسي تتلاعب بي، غريب هذا الذي داخلك ولا تستطيع أن تحكمه.

قالت: أسكن هنا منذ آلاف السنين، أطمعت كل أهل الأرض في هذه الأرض. ومنذ صعدت هذه البناية قطنت هذه الشقة، ونذرت أن أخدم كل من يسكنها إذا توافقت معه، وإذا لم أتوافق

كنت أبعدهم.. ولقد توافقت معك، وقررت أن آفي بالنذر.. وهأنت تريد قتلي..

قلت ساخراً: وسوسة شيطان..

قالت: تستطيع أن تتركني وتبحث لك عن سكن آخر.. أستطيع أن أخرجك بإسلوبي.. لكن لا أريد.. رأيتك مغلوباً على أمرك.. العجز يكبلك والفشل يحيط بك.. والإحباط يسيطر عليك.. والملل يكاد يقتلك.. فقلت هذا شقي بحياته أدارت له الدنيا ظهرها فلأجعله يتنعم قليلاً.. لكنك لست ابن نعمة.. ماذا تريد من الحياة؟

قلت بسرعة: لا شيء.

ابتسمت: الثروة..؟ على الأقل تجد لك سكنا آخر وتتخلص مني..

ـ لا أريدها.. فعواقب ذلك معروفة..

قالت: الصحة؟

ـ لقد شبعت من الدنيا.. الموت الآن أفضل.

ـ اللذة؟

ـ كل لذة يعقبها ندم عندى.. فلأرفع عن كاهلى هذا الألم..

ـ الأبناء والبنات.. الناجحون والناجحات..

ـ لست لدى مشاعر أبوة.. هذه جناه علىّ أبى وما جنيت على أحد.. أو على رأى الآخر مالى والولد إن عاش كدّنى وإن مات هدّنى.

قالت: فلتنتحر إذن؟

ـ وأين ذهب إيمانى!

قالت: افرض إنك عشت ثلاثين أو أربعين سنة أخرى.. وهذا محتمل.. أتظل على موقفك بأنك لا تريد شيئاً من الحياة..؟

ـ إذا رزقنى الله الستر والصحة.. فذلك يكفى.

قالت: أنت تسخر منى.. لم أجد أحداً مثلك.. هل تعلم ان فاوست حين زار القاهرة أقام فى بيت كان قائماً هنا..

ـ وهل زار القاهرة؟ ما المناسبة؟

قالت ـ هو أحصف منك..

ـ وإلام انتهى..؟

قالت ـ أين حب الاستطلاع .. ألا تحب أن تعرف أكثر..؟

ـ بالطبع ..

قالت: ها نحن قد التقينا على شيء تحبه وتريده.. أنا تحت أمرك..

قلت: إذا استطعت توفير المعرفة لى فقد أحسنت.. لكن دون شرط.. ما العلم الذى لديك؟

قالت: كل شيء.. أتحب أن تكون فيلسوفاً..؟

ابتسمت: دخلت من أسوأ الأبواب.. المشكلات هى نفسها المشكلات التى ثارت فى عقول البشر منذ آلاف السنين.. ما معنى الحياة وما الهدف منها؟ كيف نشأت ولماذا كان الإنسان؟ ما لغز الوجود وماهيته؟ الله والكون وإلى أين يسير الزمن؟ ما نهاية كل هذا ولماذا؟ عشرات الأسئلة وإجابات تائهة مضللة، لكن المسلم المؤمن الموحد لا يحار ولا تنتابه الهواجس، فكل شيء محدد ومعروف. البداية والنهاية وما بينها.. لذا لا حاجة لى للتفلسف والقيل والقال وابتداع إجابات لا تخضع لمنطق العقل مهما كانت عقلانيتها ولا تصبر على محك التجربة إذا

محصتها.. الحمد لله على نعمة الإسلام.. لا لأنه أراحنى من الحيرة العقلية وألقى بى على شط الأمان مستريحاً دون قلق أو شك فقط بل لأنه أيضا الحق اليقين المتفق مع منطق العقل القادر على الصمود أمام كل التساؤلات.. لا حاجة بى إلى الفلسفة..

قالت بسخرية: إيمان العجائز.. إيمان العقل يعطى الإنسان الرضا الكامل عن النفس ويزيل من ذهنه أى بادرة شك قد تعبر أفكاره يوماً.

قلت: أنا مؤمن بعقلى أيضا.. لماذا تصرين على الفلسفة.. هل أنت فيلسوفة يونانية قديمة؟

ضحكت ثم قالت: "لأن تكونى فوق ظهر حصان جامح خير لك من أن تكونى امرأة لا تفكر". هكذا قالت إحداهن.. لا يا سيدى لست منهن.. ولا أحب الفلاسفة من بنات حواء..

قلت: أول امرأة أعرفها تكره بنات جنسها..

- إذن أنت لا تعرف الكثير عن النساء..

قلت: معك حق.

ـ إذن اهتبل الفرصة.. وخذ من الملذات ما تريد؟

قلت بحزم: اسمعي.. لا تتعبي نفسك.. لو وضعت أكواماً فوق أكوام من الملذات الدنيوية ما استطعت أن تقتربي قيد أنملة من ذلك النعيم المقيم الذى هو الغاية النهائية.. أتعرفين لماذا؟ لأننا هنا إزاء أمرين مختلفين ينتميان إلى نظامين مختلفين.. مهما تكن عظمة الأول فهو ينتسب إلى نظام زماننا، بينما الثانى ينتمى إلى نظام الأزل.

قالت: اللعنة ..إنه وولتر ستيس.. هل أقول لك المصدر.. لقد أوشك أن يمسك بالحقيقة المراوغة..

قلت بلهفة: هل تستطيعين أن تتجسدى فى شخصيته..

قالت: أستطيع لكن فى الهيئة والشكل فقط.. ولن يكون هو بفكره.. فلا أستطيع أن أحيى المْوتى.. لكن ماذا يكون علمه بالنسبة إلى علمى.. أسأل.. ماذا تريد أن تعرف فلدّى علم لا تستطيع سبر غوره..

قلت: تزيفين الحقائق وتقلبين الوقائع..

ـ أفعل أحياناً.. لكنى سأكون صادقة معك.. أعدك.

قلت: أستطيع الحكم على ما تقولين.. فلدى حاسة سادسة تحمينى من شرورك..

قالت: الثقة! أنتم معشر الرجال لا تثقون فى امرأة حتى لو كانت أمكم حواء ذاتها.

قلت: ناقصات عقل ودين..

قالت: طبعاً.. ماذا سيقول المجتمع الذكورى غير ذلك.. كلكم سواء فى الشرق أو فى الغرب حتى الشيطان يحمل وجهة نظركم.. ويرى فى المرأة نقطة الضعف فيكم.. يغويها فتغويكم.. تسقط وتسقطون وراءها..

ـ لكن لن أسقط ورائك..

قالت: هل أغويتك؟

ـ ماذا تسمين ما فعلتيه؟ كنت أبحث عن ليلة أخيرة أودع فيها حياة لاهية مع امرأة عابرة.. فكنت أنت وتأجل مشروعى..

والموت قائم فى كل لحظة فدبرت ما دبرت .. حتى لا أفلت من يدك..

قالت: كنت أبغى مساعدتك.. أعمل عملاً صالحاً يثيبنى الله عليه ..

- يقول مثل عند أحد الشعوب "إن الله مع الغريب الأعزب" فالله معى بحكم غربتى ووحدتى أو هكذا أظن على كل حال.. ولا يخيب الله ظن عبد مؤمن به.. إذا أردت الثواب فكونى فى خدمة هذا العبد العابد المتعبد .. تنظفين بيته، وتعدين طعامه، وتغسلين ملابسه.. تقومين بكل شيء.. شرط أن تبتعدى عن إغوائى.. أعتقد إنك بذلك تنالين الثواب الذى تسعين إليه.. تصدقى علىّ بعملك بنية صافية وقلب مؤمن.

قالت: باختصار تريدنى خادمة..

بدأت ترقص، وتدور فى الصالة، والفستان الذى تلبسه يتلون بألوان مختلفة متعددة يعطى جسدها من تحت نسيجه الشفاف جمالاً لا يقاوم مع انعكاسات ضوء اللمبة الأصفر، بدأت

تستعرض مفاتنها، مفاتن شيطانية سقط في شراكها الكثيرون قبلي. أغمضت عيني واستعذت بالله، وتلوث الآيات القرآنية التي أحفظها، أذكرها منذ دخلت الكتّاب، مر وقت خلته طويلاً، وفتحت عيني، كانت ماتزال ترقص، إنها ليست دعوة شيطانية إذن وإلا لاختفت. إن الأمر نابع من الذات، العيب في داخلي ولا يأتيني من الخارج، أنا الفاسق الذي يبتدعها ويجسدها، وهي تسكنني، لم أتخلص بعد من حب الدنيا وملذاتها، ولم أحقق النجاح المنشود بعد، لابد من زيادة المجاهدة، إن جهاد النفس بالفعل أشد من جهاد ميدان القتال.

تخايلني وهي ترقص أمامي، تدعوني وتدعوني، لقد ضاع عقلي..

قلت بلا وعي: أتتزوجينني على سنة الله ورسول..

دارت دورة واحدة وجلست على الأرض تحملق بي..

قالت ببطء: ألن ترجع في كلامك؟

- لن أرجع.. وعلى استعداد لتحمل النتائج مهما كانت..

فكرت قليلاً، ثم نهضت تسير فى الصالة الهوينى، تعطينى ظهرها فتشتعل أعصابى، وتدير لى وجهها فأكاد أشب لأطوقها بذراعى.

قالت: لى شرط واحد.

قلت واجفا: ماهو؟

قالت: أن تكون الليلة ليلتنا.. ونتزوج غداً.

قلت دون وعى: موافق.

نزعت ثوبها ومدت لى يداً، رميت ثيابى كيفما اتفق، وكنا جسداً.

* * *

قلت بعد أن هدأت فورة الحب: عندى سؤال يحيرنى.. وخشيت أن اسأله لأية امرأة.. أيمكنك إجابتى بصدق؟

هزت رأسها بإيجاب.

قلت: هل صحيح أن الجنس هو محور حياة المرأة.. تحبه ولا

تستطيع الحياة بدونه.. وكلما ظل زوجها قوياً قويت محبته في قلبها وإذا ضعف ضعفت محبته..

قالت: إشاعة رددتموها ثم صدقتموها..

قلت: مما نرى..

قالت: حين اقترحت عليك أن تكون الليلة ليلتنا.. لم يكن بسبب شوقي إلى الجنس بل لأني عطفت عليك حين رأيت هالتك.. فأنت لو تزوجتني لن تستطيع الاستمتاع بالجنس بعد ذلك..

قلت دهشاً: كيف؟

قالت: أما زلت مصراً على الزواج بي؟

- قلت لك لن أتراجع..

قالت: لو تزوجت، وهذا ما أتمناه، سينقلب حالي وتتغير أحوالي..

- لا أفهم.

قالت: سأفقد قدرتي على التحول لأي شكل تريد. وتزول عني قوتي ولن أكون نصيرة لك إلا بكلمتي وسأبدو في عمري الحقيقي.. حيزبون على شفا الموت.. قد لا أعيش معك إلاّ أياماً.. وقد تنفر من النظر إلى وجهي..

قلت: وما الذي يجبرك على ذلك.. لماذا توافقين؟

قالت: لأن هذا ما أتمناه منذ زمن.. وهي الطريقة الوحيدة للخلاص.. وأنا أريد الخلاص ولا أستطيعه، أريد الموت لكنه بعيد عني.. فمن الذي يتزوجني بشرطي هذا! بيدك الخلاص..

قلت: ولماذا حلّت عليك هذه الرغبة الآن.

- ليس الآن. منذ أجيال أسعى للخلاص.. وكلما لوحت لأحد.. كان يريد المادة لا الروح.. يريد القوة.. يريد المال والنساء الجميلات.. يريد ملذات الحياة.. وشرط الخلاص أن يعرف السر.. فيدرك إنه بزواجي سيخسر كل شيء.. وأعطيه ما يريد حتى يفني وتفنى معه أحلامي.. كنت أتمنى أن تصمد.. وأن تتفهم مطالب الروح.. وقد صمدت.. خفت أن تجذبك الدنيا

فتكون كالآلاف الذين سبقوك.. أرجو الآن ألا تتراجع عن قرارك..

قلت: لن أتراجع.. شرط أن تجيبينى بصدق عما أسألك عنه..

ـ إسأل.

قلت: ماذا كان عملك بالضبط؟

ـ أبسط الأعمال الشيطانية.. أن أشيع الفاحشة بين الذين آمنوا.. أجعلهم يدعون إلى التحرر الجنسى.. الزنا واللواطة والسحاق وكل الموبقات.. كنت أعزف على الوتر الذى يحبونه وكانوا يطيعون. فعشت حياتى فى عذاب وسأنتهى إلى عذاب إلا أن تدركنى رحمة ربى.

حط علىّ هم ثقيل، كم دعوت فى كتاباتى إلى التحرر الجنسى، وكم تشدقت بأن الديمقراطية والحرية لن تتحققا إلا إذا تحرر المجتمع جنسياً.. لقد كنت أسير فى ركاب شيطانة فاجرة.. زينت لى أشياء وأشياء.. وهى الآن تفتح عينى على أمور كثيرة أعبرها ببساطة ولا أتوقف عندها ـ كنت أعتبر نفسى

على صواب.. أدافع عن أرائى بجرأة مستشهداً بالآيات.. متحدثاً عن رحابة الدين وعفو الله.. وهأنذا فجأة اكتشفت إنى كنت على ضلال .. أليست تلك مصيبة؟

قالت: فيم سرحت أفكارك..

قلت: ألا تقرأين الأفكار .. ماذا رأيت..؟

قالت: لا أصدق ما يدور فى ذهنك..

ـ بل صدقى.. غدا سنتزوج.. أو حين يطلع النهار.. وتفقدين قوتك.. ألا تستطيعن الآن وأنت فى قوتك أن تحضرى مليونا من الجنيهات.. أضعه فى البنك ونعيش من ريعه حتى آخر أيامنا..

قالت بحزن: لا أدرى كيف تفكرون أيها الرجال.. ستكون أموالاً حراما.. ألا تدرك أنى سأسرقها من آخرين .. فأنا لا أطبع النقود.. أتريد أن يسترك الله بأموال حرام؟

ـ يعنى المستفيد الوحيد من هذا المشروع هو أنت.. أتزوجك فتصبحين عجوزا كركوية تموتين بعد بضة إيام أو أسابيع.. وأكون قد خلصتك وأجلس لأحكى ذكرياتى..!

قالت: وهل هذا قليل.. تخليص روح بشرية؟

ضحكت. قالت: لماذا تضحك؟

قلت: تذكرت أبياتا من الشعر لأبى نواس:

عجبت من إبليس فى تيهه وقبح ما يظهر من نخوته

تاه على آدم فى سجدة وصار قوادا لذريته

الشيطان سبب بلاء الإنسان. وتريدين منى الآن أن أخلّص أحد أتباعه المخلصين..

قالت بدهشة: ما الذى قلب أفكارك!! ألا تحس بحلاوة أن تُنقذ روحاً.. ألم تجرب لذة العطاء! تلك التى تفوق لذة الجنس.. عجبى منكم أيها الرجال.. ما أسرع ما تتغير أحوالكم.. وما أوهى الخيوط التى تربطكم بإيمانكم.. تريدون الربح المعجل على فائدة مضمونة مؤجلة.. إنه الصباح أوشك أن يطلع.. ما الذى تخطط له اليوم.. أتريد مليوناً من الجنيهات؟ وعلى أية هيئة تريد أن أتشكل لك؟ اختر أية ملكة جمال.. أتريد قصراً تعيش فيه مملوء بالخدم والحشم، أم تريد أن تصبح ملكاً.. أستطيع أن

أُنشىء لك مملكة تخضع لأمرك وترتهن بإشارتك.. إن امكانياتى لا حدود لها.. كل ما تطلبه تناله..

ابتسمت: قد أنال كل ما أريد اليوم.. وأموت فى اليوم التالى..

- مقامرة أو مغامرة.. عليك أن تخوضها بإرادتك إذا رغبت..

قلت: وأنت.. تتنازلين عن كل هذه الإمكانيات التى تتمتعين بها من أجل الخلاص؟

قالت: لأنى أدركت أن الدنيا لا تساوى شيئاً مهما عشت وملكت.. أنا أريد الحقيقة.. ولا أريد الوهم الذى نحياه..

قلت: وهل نعيش فى وهم؟ هأنذا وهأنت أمامى.. وها هو البيت يجمعنا والحى يحيطنا والمدينة تحتوينا و..

أشارت لى أن أصمت. تنهدت ثم نزلت عن السرير لتجلس على كرسى.

قالت: ما أنت إلا وهم. طاقة مجسدة بشكل آدمى .. تستطيع الأكل والشرب واللمس والإخراج والتناسل.. تتمتع بكل حواسك.. يمكنك القول إنك وهم حقيقى.. وهم لا يتبادر إلى

ذهنك أدنى شك بأنه الحقيقة.. ومع ذلك فهو وهم.. وتلك هى قدرة الله.

قلت وأنا أنهض وأجلس قبالتها: كيف يكون كل هذا وهماً.. هأنت وهأنذا.. وها هى الكراسة وها هو القلم .. فأين الوهم فى هذا؟ قد تكونين وهماً.. لكنى لست كذلك..

قالت: بمقاييسنا العقلية الاستدلالية والزمنية لا يمكن أن يكون كل هذا وهما.. لكن لو قسنا بمقياس آخر.. مقياس الأزل.. مقياس الجوهر الحقيقى الذى لا يخضع لمنطق الأشياء الدنيوية مثلنا.. فإننا وهم وهو الحقيقة.. هو الأصل الذى يسمح لكل الموجودات أن توجد.. هو الذى جسّدنا من طاقة.. وجعلنا نتحرك ونسير نتكلم ونرى ونسمع ونحس وخلق لنا زمناً خاصاً.. وحجب عنا جوهر الأمر وحال بيننا وبين الإلمام بالحقيقة.. حتى يحين الوقت.. وقلة هى التى يمكن أن تتجاوز هذا الزمان لتعانق لحظة الأبدية.. وتتوحد مع الحقيقة الأزلية.. فى لحظة إشراق نادرة..

قلت مقاطعاً: رويداً.. رويداً.. فأنا لا أكاد أفهم شيئاً..

قلت ببطء: أقـصـد أن أقـول إننا حـين نفكر فى الله أصل الوجود كله.. نقيسه بمقاييس زمننا على أساسا أننا الحقيقة.. وبالتالى يُخيل للبعض إنه وهم.. وهنا يكمن الخطأ.. الكون كله يسير حسب نظامين .. النظام الطبيعى المادى الذى نراه وهو نظام الزمان العادى الذى نحسب به ونعيشه.. والنظام الآلهى الذى هو نظام الأزل.. ثابت لا يتـغير دائم لا يحيل.. احدهما حقيقة والآخر وهم.. وكى تعرف الحقيقة من الوهم تأكيداً لابد من لحظة إشراق لاتتوفر لكل واحد.. النظامان .. نظام الزمن المادى.. نظامنا الدنيوى، ونظام الأزل النظام الالهى يتقاطعان فى لحظات معينة.. فيدرك المرء أنذاك الحقيقة من الوهم. نظام الأزل لا يمت بأدنى صلة إلى نظام الزمان.. نظامان مختلفان.. أحدهما حقيقة - نظام الأزل، الآخر تجسيد لحقيقة .. وهم.. نراه ونلمسه ونعيشه وما هو بحقيقة.

لمع فى ذهنى كالبرق المعنى الذى تريد قوله وأصابتنى قشعريرة، وشعرت كأنى كتلة من جليد ستتحطم عند أول لمسة من كائن قوى أجهله.. وإن كنت أحس به. أدركت فجأة بأننى بالفعل وهم،

سراب، يخيل للناظر إليه إنه حقيقة فإذا اقترب منه ـ بكل معنى القرب ـ وجده لا شيء.. ووجد الله عنده.

قالت: أعرفت الآن معنى الكل باطل وقبض ريح.. أعرفت معنى ان الحياة الآخرة هى الحياة الحقيقة.. أعرفت الآن لماذا لا تجد بمفهومك المادى الضيق معنى للحياة..؟ أعرفت لماذا الحياة الدنيا لهو ولعب وتفاخر بالأموال والأولاد؟ كلكم نسيتم أو تناسيتم أو تجاهلتهم ذلك المقياس الآخر الذى كان يجب أن تعيشوا به وعليه.. أقصد بالطبع دعاة المادة والطبيعة.. هل أدركت الآن المعنى الغامض الكلى الذى توصل إليه الصوفية بالحدس والبديهة دون أن يدركوه تماماً.. فزهدوا بالوهم وحاولوا التمسك بالحقيقة الأصلية.. لو قست بهذا المقياس الواضح الغامض.. ستغدو كل الأشياء واضحة أمامك وسيتجلى لعقلك الحق المطلق والحقيقة الباهرة..

هذا الوهم الكبير.. الكون المتعاظم هو طاقة مجسدة.. نبت الحقيقة الأصلية.. بنفخة واحدة منها يمكن أن يزول.. لأنه تخييل للحقيقة.. وهم يعيش على مجموعة من الأوهام.. أوهام

مجسدة.. تتصارع تتنافس.. تبدع وتخلق.. وتستمد شعاعها من الأصل فتتلبس شكل الواقع وتبنى عالماً واقعياً من الوهم.. ينقض ويفنى فى لحظة لأنه متناه.. فكل موجود من منظور هذا المقياس هو إلى نهاية وفناء.. أما اللامتناهى والدائم فهو شىء آخر.. هل فهمت الآن أو أزيدك شرحاً..؟

هل عرفت الآن معنى ليس كمثله شىء، لأنه خارج الأشياء والموجودات والمواضيع.. خارج الوهم.. إنه الحقيقة الأولى والأخيرة.. وأنت أيها الإنسان المسكين الذى غرتك قوتك الظاهرة.. اعتبرته وهما ووجودك المتناهى هو الحقيقة.. هل تفتحت عيناك.. والمصيبة.. إذا رأيت فى ذلك مصيبة أن لا حيلة لك فى الأمر.. فأنت من الأشياء المخلوقة ومعها صائر إلى نهاية تعيد هذا الوهم الواقعى إلى حقيقته: طاقة ولا شىء آخر، قد تتجسد فى أشياء أخر لتنتهى بدورها من وهمها الحقيقى إلى طاقة مجسدة فى غيرها وهلم جرا.. حتى يأتى اليوم الذى تُنهى فيه الحقيقة الأصلية عالم الأوهام، وتنتهى اللعبة، لنواجه العالم الحقيقى.. ووجد الله عنده. أعرفت الآن سر هذا الكون.. وهل

أدركت سر زهدى فيه والتطلع إلى الخلاص؟ أما زلت تريد مليوناً من الجنيهات؟ أو قصراً مملوءاً بالعبيد؟ أو أى وهم تريد..!

نهضت كالدائخ، كدت أقع. فتحت النافذة لتتسلل أشعة الشمس بحياء إلى الغرفة، وسرحت فى الأفق البعيد، دوامة من الأفكار تجتاحنى. مرّ وقت ليس بالقصير وأنا فى وقفتى ساهما. خلتها ذهبت، إلتفت فرأيتها. انتابتنى رعدة..

قلت: والعلاقة بيننا وبينه؟ بين هذا الحادث الطارئ الذى هو نحن بذلك الأزلى السرمدى؟ بين هذا الزمان الذى هو عالمنا وذلك الزمان الحقيقى الذى هو عالمه.. ما شكل هذه العلاقة.. هل تعرفين؟

قالت وقد علت وجهها ابتسامة: العلاقة دائمة مستمرة وغير منقطعة.. فهو أقرب إليك من حبل الوريد.. ولأقرب المسألة إلى مفهومك.. أتعرف الكمبيوتر الرئيسى المتصل بكل أجهزة الكمبيوتر الأخرى، بحيث إذا حدث شىء فى أى جهاز يعلم به الجهاز الأكبر على الفور، إنه تشبيه مع الفارق. الإنسان الذى

هو التالى فى الموجودات بعد الملائكة، نفخ الله فيه من روحه، فالروح من الله خالدة أبداً، وهى بالضبط كالرقاقة أو شريحة كمبيوتر إلهية موجودة في الإنسان وتتصل مباشرة بالخالق، كل الخلائق متصلة بالخالق عن طريق هذه الرقاقة الخالدة، فإذا فكرت فى شىء، حتى قبل أن تنطق به أو تعمله يصل إليه مباشرة، فهو عليم بكل شى [illegible] ذه الرقاق[illegible] لروح لا يمكن نزعها أو استبدالها، فبنزعها تنتهى الحياة، وتصعد بكل شىء عنك إلى بارئها، ومن جهتنا فإننا فى سعينا بوعى أو بلا وعى ننشد ذلك اللامتناهى، الذى يكمن فيه النور الأعظم، رغبة فى التحرر من أغلال الكينونة، ولن يتم ذلك إلا بالموت، بإنهاء هذا الوجود الوهمى الذى يشكل قيدا علينا.. أفهمت الآن؟..

علانى الوجوم، وسرحت أفكارى فيما قالته.

قالت بعد فترة: فيم تفكر؟

قلت: استغرب أنك تقولين هذا الكلام..

قالت: فيه خلاصى وخلاصك..

قلت: أخرجي الآن.. أريد أن أصغى إلى نفسى..

قالت: ألا تريد مساعدتى..!

قلت: لا أريد الآن سوى الإصغاء إلى إيقاع ذاتى.. انصرفى وعودى بعد حين.. إن مدّ الله فى عمرى.. سأفكر فى الأمر.

* * *

كلماتها أصابتنى بالذهول، لكنها تتفق مع رؤيتى للأشياء ومع إيمانى بالله، ربما لا تكون جنية كما تقول، فشهوة الإنسى تقع فى لذته فى الفعل، وشهوة الجنى فى رغبته فى الإغواء دون أن يملك سلطة التنفيذ، لا رغبته فى الهداية، إنها لا تغوينى، الإغواء من نفسى الأمارة بالسوء، هل أنا الإنسان والشيطان معا فى جسد واحد؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هى هذه الرؤى إذن؟ أتكون قوىً داخلية تتجسد أمامى فتبدو كالحقيقة؟ وإذا كانت تلازمنى رغم الإيمان وقراءة القرآن، فهل يعنى ذلك إنها ليست شيطانية، أو إن الشيطان يسكن داخلى، الشيطان لا يقطن إلاّ قلباً خرباً، أعوذ بالله، كيف السبيل إلى التخلص من

الاثنين، هى إن وجدت، وما بداخلى إن وجد؟ كلما اغتظت من أحد، أو أغضبنى سلوك أحد، قتلته على الورق، إلى متى أظل أصنع توابيتاً من الورق؟ إنها تريحنى، لكنها كالظل، لا وزن حقيقى لها ولا حجم، ظل يسير وراءك أو أمامك أو بجانبك لا يفارقك، لكنه عديم الفائدة، هل أصبح رجل الظلال؟ قمت أسير فى الغرفة محاولاً النظر الى ظلى من أماكن عدة حيث يلقى المصباح بنوره علىّ، لكن لدهشتى لم أر ظلى. ابتسمت أولاً ببلاهة، ولبست النظارة ونظرت، لا ظل، وقفت فى أماكن متفرقة، أعرض نفسى للضوء وأنظر حولى وخلفى، لكن لا ظل، رجل بلا ظل، هل تملك الشياطين أن تخفى الظل وتبقى الجسد؟ عجبا. قلت: توقفى عن هذه الألاعيب.. لماذا لا تغادرين؟ أريد أن أجلس وحدى.

وجلست على الكرسى ثانية، كنت كمن يجلس على الريح، خفيفاً منطلقاً، يعمنى صفاء داخلى لم أستشعره من قبل. شعرت إنى على اتصال مباشر مع الخالق، أستمد منه قوة تحرك أعضائى بخفة شديدة. طاقة ليس لها مثيل، لم أحسها :

من قبل، انتعشت بها ولها كل جارحة فى جسدى، كنت أطير كـالريشـة تتـأمل روعـة هذا الكون، تحـركـهـا الريح فى كل الاتجاهات، تستعرض صنعة الخالق التى لا مثيل لها، وبدت الدنيا أكثر جمالاً وبهاءً، وأدركت فجأة جمال كل المخلوقات، هل أنا هو أنا؟ أمـا أنا هو الكون؟ أرانى وقـد همت فى اللامكان، أتأمل ذاتى والآخرين، حقيقة زائفة تنطلق لترتمى فى أحضان الحقيقة الخالدة، فلمَ أحاول البحث عن الظل؟ كنت أرغب فى كوب من الشاى لكنى صممت على عدم القيام، حتى لا تحيرنى مسألة الظل، لم انبس بكلمة ولم أعبر عن تلك الرغبة ومع ذلك وجدت كوب الشاى أمامى يتصاعد منه البخار. حملقت فى الكوب مذهولاً. ما هذا الذى يحدث؟ وما الذى يجرى لى؟ .. فكرت بقطعة لحم مشوى وطبقاً من السلطة، وكانا أمامى. خلعت النظارة وتفحصتهما، لاشك فيهما أكلت وما أكلت، كما يحدث فى الحلم، تحسست جسدى وأعضائى كلها.. موجودة وغير موجودة، أراها وأحسها وأتخللها أيضاً.. هل أحلم؟ ياله من حلم سخيف؟ هززت رأسى وجاهدت كى أفيق منه، لم أفق،

فكرت في النهوض، وجدتني أنهض بسهولة شديدة ووزني أخف من اللاشيء، أسير في الغرفة بلا ظل ولا تعب ولا شعور بأي عضو من الأعضاء، معنى ذلك إنها كلها سليمة، وجع الضرس اختفى، حدة البصر عادت، أرى الأشياء وما وراءها، أين أنا؟ هل سحرتني بنت الجنية! وكيف أتخلص من هذا السحر، هل أقفز من الشرفة، أو أضرب رأسي بالحائط، متهيب من الحائط، اقتربت منه واقتربت، وتراجعت برأسي لأضربه به، وفوجئت بأني أخترقه بسهولة وأصبح في الغرفة الأخرى، نظرت إلى الحائط خلفي، واقف كما هو، عدت وهممت أن اصطدم به لكني اخترقته ثانية وبمنتهى السهولة، حرت وركبني الخوف، همست: ليليت.. تعالى سأتزوجك، أولم نتفق أن أقول لك رأيي اليوم.. تعالى يا ليليت.. ودرت أبحث عنها.. وكلما دخلت غرفة الصالة وجدتني لازلت أجلس على الكرسي.. وأمامي ورقة تحمل قصيدة لشاعر لا أنكر اسمه:

نأتي إلى العالم وحدنا

ونرحل وحدنا

وبين الوصول والرحيل

نحلم أن نعيش فى سلام

أو هكذا نقول

لكننا ..

لكنه طريق طويل

بين يقظة الصباح

حتى ضجعة المساء

انتهت

أحمد عمر شاهين

أكتوبر ٩٨ ـ فبراير ٢٠٠٠

للمؤلف:

روايات:

- ونزل القرية غريب بيروت ١٩٩٧
- وإن طال السفر دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ٧٧
- توائم الخوف دار الموقف العربى ـ القاهرة ٨٣
- زمن اللعنة دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ٨٣
- الاختناق دار شهدى ـ القاهرة ٨٥
- بيت للرجم بيت للصلاة دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ٨٩
- الآخرون دار العروبة ـ٨٩
- المندل دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ٩١
- رجل فى الظل هيئة قصور الثقافة ٩٧
- حمدان طليقا دار الحضارة ـ القاهرة٢٠٠٠
- ايماءات (قصص قصيرة) دار العروبة ٩٠
- حالات (قصص) دار العروبة ٩٢

بالإضافة إلى ٢٧ كتابا مترجما وخمسة كتب فى مجالات مختلفة.

رقم الإيداع : ١٢٣٦٣/٢٠٠٢

I.S.B.N. 977.305.2907

حين استيقظ وجد نفسه على قارعة الطريق ، يجلس على بلاطة رخامية على محطة للباص فى شارع الهرم . أشعة الصباح تضربه ولسعاتها هى التى أيقظته . نظرات بعض الوقوف على المحطة ترمقه متعجبة . ما الذى حدث له ؟ هل حملوه ونزلوا به كل تلك المسافة وألقوه هنا وما الذى دفعهم إلى ذلك ؟

مد يده بسرعة إلى جيبه ، محفظته لا تزال هناك ، فتحها النقود مكانها ، عجباً ، لم يسرقوه ، لماذا كل هذا الغموض ؟ بدأ يتشكك فى مشوار الأمس أو بالأحرى اليوم ، كله .

سأل رجل يقف على المحطة : هل أنت من سكان المنطقة ؟ حين هز الرجل رأسه بالإيجاب سأله : أهناك منطقة سكنية تقع على جبل تصعد إليها على درجات حجرية فى مكان قريب من هنا ؟

